أحمد محمد عبده

مكاشفات البحر الميت

روايــة

محافظـــــة الشـــــرقية

الهيئـــــة العامـــــة لقصـــــور الثقافـــــة
إقلـــــيم شـــــرق الـــــدلتا الثقـــــافي

فرع الشرقية الثقافي
سلسلة خيول أدبية

وكما تواعدنا دائما أيها المحبون نلتقي على حب الكلمة وسمو الحرف ، ورفعة المعني ، فالأفق هو عالم الإبداع الأكثر انفتاحا وتطلعا لكل ما هو صدق وبهاء ، إنه الشاهد على حلم التطلع للضحي الكامن في أعماق أعيننا ونحن نتطلع لرؤية نصيبها أو غاية ننشدها ، وبكل ما نملك من رغبات حره ، لا تحدوها المنافع والأهواء والمصالح الخاصة .. إنه الحلم الذي تنشده الفنون ، ولاسيما فنون الإبداع الأدبي .. ذلك الأفق الذي نطالع فيه (خيول أدبية) في طرحها الثاني ، وهي تركض نحو تأكيد قدرتها على اللحاق بركب السيطرة والانتماء والتفوق ، وفي موكب الحق والخير والجمال ، ذلك الثراء الفكري والثقافي والإبداعي الذي دعمه ، بل واستثمر فيه معالي الوزير المستشار يحي عبد المجيد محافظ الشرقية ، ليكتمل البهاء والاستمرار ، وفاء بوعد النبلاء في احتضان أدباء وشعراء هذه المحافظة الثرية والخصبة في شتي المجالات والفنون ، إنه حرث الفنان / أحمد نوار ، الذي ولي وجهه شطر أصحاب الفكر بالقلم ، أو بالفرشاة سواء ليؤكد أنه الزمن الذي يتحتم علينا فيه أن نؤكد - بما في الفنون من لغة مؤثرة - على ضرورة النظرة بإنسانية إلي العالم ، لنتمكن من الانتماء .. بل والتماهي فيه .. مدعوما بورود الشاعر الأرقي مصطفي السعدني الذي يضفي على المشهد الإبداعي بهذا الإقليم الخصب جمالا مضافا ، باقترابه المقترن بالرعاية ، وحرصه الدائم على اكتمال البهاء .

والله الموفق

الفنان / محمد الشاعر
مدير عام ثقافة الشرقية

فاصرف الخاطر عن ظاهرها
واطلب الباطن حتي تعلما

ابن عربي

❖ من تجليات ومواقف أبو عبد الله محمد بن عبد الله .
..الملقّب بـ"النِفّري" وهو من أقطاب الصوفية .

توطئـــة

آمنًا بالله وبأن الديناصورات .. من الممكن أن تنقرض ، وقد حدث ، إلا أنها خَلَّفتْ ورائها قطعاناً من القطط .

(قالها ابن حتحوت حينما خرج من الخلوة يوماً ، وراح يتفقد جحور وكهوف وحفريات وجداريات ومساخيط المحميَّة ، حيث عثرَعلي كتاب " أُمَم منقرضة " وكان يتناول تاريخ أشهر الشعوب والأنواع التى أكلتها العِتَّة .. وهي :

- الهنود الحُمْر– الذين اسودُّوا بعد ذلك – سكان أمريكا الأصليون .

- الأبوريجيون .. وهم سكان استراليا الأصليين .

- اليعسوب .. وكان مسكنه الأصلى على شواطئ النيل والفرات والبحر الميت .

- العمالقة .. وكانوا هم السكان الأصليين لوادٍ أطلقوا عليه مؤخراً وادى المَخْصيِّين)

فيبدو أن قوانين الانقلاب الكوني . يدخل فيها أن تنقرض الدناصير وتحيا القطط .

(قالها ابن حتحوت . بعد أن انتهي من القراءة فى كتاب .. عن نظرية الانتخاب الطبيعي . باب " النشوء والتَّدني ")

ربما لأن تلك العمـاليق لها روح واحدة ، أما القطط فلها سبعة أرواح ...

(وهذه قالها حين كان يتصفح فى كتاب " أرواح وأشباح ")

وكان من الطبيعي أن تقوم على هامش تلك المخلوقات الدنيا .. مملكة أكثر دناءة ودُنُوّاً . قِوامها النمل والقمل والبراغيث .

(وعند تلك العبارة ألقي ابن حتحوت كتاباً عن " العولمة والهاموش " ثم راح يفركه بقدمه . وكان به حذاءٌ قديم)

❖❖❖

المُنقلب الأول

عاينتُ النفسَ، وشاهدتُ الخلقوت !

❖ تلاوةُ الليلِ بابٌ إلي الفهم ، والفهم بابٌ إلي المغفرة ......

ولما أحْجمَ القطبُ عن الاستطراد..أكملتُ قائلاً :

... والمغفرةُ بابٌ إلي القبول ، والقبول بابٌ إلىالوصول ، والوصول بابٌ إلىالحصول ، والحصول بابٌ إلي المعاينة ، والمعاينة بابٌ إلي اليقين ، واليقين بابٌ إلى البرهان ...

وفي غفوتي ، فيما بين صلاة الفجر والإصباح ، رأيتُ فى المنام اني أركبُ فحلاً أبيض !

كان أبي – حتحوت الأكبر – قد قطع حديثه فجأة ، وقال بلا مناسبة : أن ركوب الفحل الأبيض فى المنام يعني أن هاتفاً يأتيك .!

وعند الصبح ، دغدغتُ فى نفسي سطوة الركون إلى الخلوة ، فقطفتُ لساني من حدائق الأوراد ، وأهلّتُ نفسي للنزول إلي الناس ، فهذه الساعة لهم ، فرضوها عليَّ ، بعد أن حدّدوا إقامتى في تلك الخلوة ، خصّصوها لفتح الدكان ، أبيعُ لهم الكمون والكُسبرة والمرمرية والعسل الأسود والكبريت .

وحين هَممْتُ بالخروج ، والقيتُ بقدمي اليمني إلي عتبة الدنيا ، وكانت القدم اليسري مُتشبثة بأرض الخلوة ...

من أوحي لها أن تتوقف تلك اللحظات ؟

وان أمراً مـا .. سـوف يُلقـي علـى قلبي ، ولا ينبغـي أن يتـنـزل إلا بين جدرانها ؟

هبط النداءُ عليَّ ، أتاني من أعلي ، بعضُ الظـن مـن معظـم الجهل ! فمن يركبُ ظهر الخلوة إذن . بينمـا سـطحها قبـو أملـس ، ولو أن عصفورين تهاذرا علي سفحِهِ لا نزلقا واقعين على الأرض ؟

راح النداءُ يترددُ ما بين جدراني وحوائط الخلوة :

يا ابن حتحوت ..حوت ..حوت .. ووت .. ووت ..وت ..وت

أنت مسافرٌ إلي الملكوت ..كوت ..كوت .. ووت.. وت..

زادُكَ الهَمّ ، ومطيتك ظهر حوت ..حوت ..وت ..وت ...

رَجَـفَ قلـبي ، وترجـرج كبـدي ، وارتعشـت أطـرافي ، ونملَـتْ شغافي ، واصطكتْ أسناني ، ورقصتْ سيقاني ، فأعرتُ سمعي . وقلّبتُ وجهي فى فراغ الخلوة ..

أي ملكوتٍ سوف أسافرُ إليه ؟

وأى هم ٍذلك الذى سيكون زادى ؟

يبـدوا أن الهمَّ مكتوب علـى جبين كـل مـن يحمـل علـى كتفـه براميل دموع العالم !!

فمااسترحتُ يوماً بعـد الـذي عانيتـه . تحت شـجرة النبـق العتيقـة . فى بادية الصحراء .

فكوا القيد الحديدى من قدمى . وأحكموا حول معصم الـروح قيداً آخر !!

جدران الخلوة راحت تردد ورائي :

إنا لله..لاه ..لاه ..لاه .. هاه..هاه ....

وإنا إليه راجعون ..عون ..عون ..عون ..وون..وون ....

فأرجعتُ ساقي التي تعجلَتْ وخَرَجَتْ ، ثم توسَّطتُ خلوتي ، ثم وجهتُ وجهي لمن فطر الملكَ وهيأ الملكوت . قلتُ أُصلّي ركعتين ، لعلي أنالُ كرامة الموت وأنا ساجد أو راكع ، فإن لم أنل تلك الكرامة ، فحسبي أن تذهب عني الرهبة والرجفة ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك .. فقد يأتيني اليقين ، محمولاً على أثير آخر ، أكثر وضوحاً . أكثر صراحة .

رفعتُ كفيَّ باستواء شحمتي الأذنين .

" الله أكبر "

ثم نوديَ عليَّ مرة أخري . لم أُعِر سمعي ولم التفتْ ، فكيف ألتفتُ وقد كنتُ ألقي بالدنيا وراء ظهري ؟

أقمها يا مؤمن وتمِّم أركانها ، الفرض منها والسنَّة ، ثم اخرج منها كما دخلتَ فيها ، وبعد أن تخرج منها وتنتشر فى الأرض .. التقط بأظافرك الدنيا كما ألقيتها وراء ظهرك !

ثم نوديَ عليَّ من قدَّامي ، لم أرفع عيني عن موضع السجود "...مالك يوم الدين ..."

كنتُ على هيئة الرقم ١ ، ثم انكسرتُ فتحولتُ إلي شكل الرقم ٦ " سبحان ربي العظيم " ، ثم استقمتُ " سمع الله لمن حمده " ثم انكفأتُ على الأرض ساجداً .. " سبحان ربي الأعلي".

ومــن وراء جفـونيَ المُغلقـة ، رأيـتُ كـأني حـرف الـ ك (الكاف) . قابعٌ ومتشبثٌ بخشونة الأديم علي كرَّية الأرض . كأنني نملة تتجول علي مُنحدر جبل ، خَشيَتْ النملة أن تنزلق . لكن .. لوأنها انزلقتْ من مُنحني ، فمن المؤكد أن هذا المُنحنى سوف يُسلِمها إلي استدارة أخري . لتعبرعليها إلي قوسٍ تالٍ ، لتجد نفسها مستقرة حيث كانت عند البدء !

صارت الدائرية هي الناموس فى تكويني ، الجوَّاني والبرَّاني ، اشعرُ أن حياتي فلكٌ دوَّار ، ربع قرن .. وأنا مقيد فى سلسلة مربوطة فى شجرة النبق القديمة . ادورُ حولها .. كأني نجم فى مجرَّةٍ بلا شمس . جوارحي تتهجد بالكاف ، بينما روحي تتبتل بالنون .

ثم نُوديَ عليَّ من الخلف ، لم ألتفت ، إذ .. كيف ألتفتُ وقد كنتُ أقرأ التشهد الأخير

" ... كما صليتَ على إبراهيم وعلي آل إبراهيم . فى العالمين "

شرف الفداء مِلكٌ لكل المِلَل ، والكرامةُ لِمن افتداه ربه ، بعد أن تلَّهُ للجبين ، والسُنَّة فى رقابنا ، أن نَذْبحَ الخِراف .. حتي لا نصيرَ نحن النِعاج !!

تيار دافئ من اطمئنان سري فى عروقي ، فخرج مني الفزعان والرجفان والرعشان .

ثم نوديَ من الجانب الأيسر ، تذكرتُ رؤيتي للفحل الأبيض ، كان أبي - حتحوت الأكبر قد قطع حديثه فجأة - مرة أخري - وقال بأن رؤية الفحل الأبيض فى المنام تعنى انك سوف ترقى إلى مراتب عليا !!

" إنك حميد مجيد "

السلام عليكم ....

وهكذا .. خرجتُ منها دون أن أقْبض . أصدية النداءات لا تزال تترددُ فى أركاني ، وفي جنبات الخلوة .

البعيدُ منها – نسبياً – آخذٌ فى التلاشي والخفوت .. فوت .فوت .فوت .

والقريبُ منها يتداخل ويتشابك ويركبُ موجة المُتلاشي .

الأصدية الحيَّة تركبُ متن الرجيع المُتماوت . والرجيع والترجيع يُطوِّقُ الدنيا .يحزِّمها .وكأنه يحذِّرني وينذِّرني . فجَّ النور من بُقع أظافري ، كانت كأنها بللورات من الفسفور الأخضر ، بينما نورٌ آخر يَشعُ من أثر السجود في جبهتي ، تراقصت الأنوار على الحوائط، رأيتُ على حائط منها سَيلاً سيَّالاً .. متحركاً ودائرياً . من كلمات مضيئة ، لايكاد يختفي وراء أفق " الشاشة " حتى يظهر من جديد . تستطيعُ أن تقرأها بلا ملاحقة . وتلاحقها دون أن تلهث وراءها .

❖ الحقيقة مستقر .. وللمستقر أبواب .. وللأبواب طُرق .. وللطرق فِجَاج .. وللفِجَاج أدلاَّء .. وللأدلاَّء زاد .. وللزاد أسبابٌ .

وهل أنا مؤهلٌ لطرق الأبواب واقتحام الفِجاج ؟

وأي كرامة لي من الممكن أن تؤهلني لسلك المسالك وإدراك المدارك . وأنا المتهمُ عند قومي ، والمُصابُ في رجالنا ؟

... فلمَّا رأي القوم .. أن بطون زوجاتهم وبناتهم راحت تعلو وتنتفخ يوماً بعد يوم . وما أن ينتهوا من اكتشافِ بطن . حتي تظهر لهم بطنٌ غيرها . عند ذلك .. توجَّهتْ ظنونهم وشكوكهم نحوي .. قالوا هو الفحل الوحيد في البلد ، حبَّلَ نساءنا ، وكَشَفَ سِتْرنا ، وابرزَ عورتنا . فما جزاؤه إلا أن " يُخنق " حتي يصير خصيًّا مثلنا ..

فاجتمع مجلس الأعيان . وكان قرارهم أن " يُربط في شجرة النبق العتيقة في أول البادية . خمساً وعشرين عاما ، حتي تخمد شُعلته . وتذبل نُضرته . وتتحلل فحولته " !!

سحبوني إلي البادية ، قيد وني بالحديد ، تعاقبتْ عليَّ السنين . بين طفح القيظ ولفح الصقيع ، حول الشجرة .. مثل فحل دوَّار في ساقية . أو نجم سيَّار . تنطفئ جمرتي يوماً بعد يوم .

نجم تائه في الفراغ ، عالمي لا يتناهي ، ودائريَّتي لا تستقيم ، حتي صنعتْ قدماي- بحكم السنين والحركة - خندقاً محفوراً في الرمل .. لوأنهم أقاموني علي بئر كي أرفع الماء ، لتحولتْ الصحراء من حولي إلي بستان من عنب ونخل ورمان .

وكأنهم كانوا حريصين علي استمرارية حياتي ، إذ راحوا يُرسلونَ ليَ الطعام والشراب . ففي السنوات الأولي .. كانت تَهلُّ عليَّ حسناوات القرية ، فكانت المرأة منهن تحرص علي وضع صُرة الطعام وقُلة الماء ، بحيث تكون عند آخر امتداد أصابعي . إذا ما وقعتُ وانطرحتُ وتمددتُ علي الرمل - ماداً ذراعي ، ثم تنصرف المرأة .. وهي تجرخلفها أنوثتها في دلال وتثنِّي .. فأظلُ أعالجُ الحركة ، وأنا مطروحٌ علي امتداد طولي ، مثل ثعبان يتلوى على زجاج ، حتي أتمكن من جذب الصُرة والقلة .

كانوا يذبحون فحولتي ويعلقونها في خطاطيف الشبق !

ومع مرور السنين راحوا يُرسلون لي المؤونة مع الحرافيش من كَدَش النساء ، وما كان يغيظني ويفقع مرارتي ، أن هؤلاء كُنَّ يفعلن في أنفسهن .. مثلما تفعل حسناوات الكعوب !

تحرص الواحدة منهن علي تكحيل عينيها ، ودعك الحراشف في عراقيبها .. لكن هيهات ..!

وحينما تأكدوا من الانحناء في ظهري ، راحوا يُرسلون لي الزاد مع " الرجال " !

❖❖❖

وقد وضعت الحوامل ما في بطونهن تباعاً .

- ابن من هذا .. ؟

- ....

- وابن من هذا .. ؟

- .. ..

- هذا الولد لا يحمل أي شبه منه ؟

- .. ..

- لو كذَبْتِ عليَّ . فسوف أُلقي عليكِ يمين الطلاق .

- هذا يكون أفضل ..طلّقني .

❖❖❖

والحمد لله .. فحتي الآن .. لم أرَ في المنام ..ما كنتُ رأيته قبل أن يتهموني . ويُنفّذونَ عليَّ حكمهم ، فكنتُ قد رأيتُ أن جيوشاً من الوطاويط البيضاء تهجم علي رأسي . وتخمشُ في أصداغي !

فلا أرانيَ الشيطانُ .. تلك الرؤيا مرة أخرى .

❖❖❖

ثم إنني .. لستُ شهيداً أعادني ربي . لكي أُقتل في سبيله من جديد ، كما أنني لستُ نبياً ، فقد أغلقت السماء بوابة نزول الأنبياء ، وصارت الاستمرارية لنبيٍ كأنه يبُعثُ فينا كل يوم ، يزعقُ فينا كل ساعة ، وحين يأتي .. فلا يجد صحابةً ولا أنصارا !!

كما أنني لم أكن من أُولي العزم ، ولا أنا نبيُّ العصا . ولا رسولُ البُراق . ولستُ نبي الناقة ، فلا أُكمِهُ الأبرص . ولا أُبرئُ المصروع ... فأي أمر جلل يستدعي سياحتي في الملكوت .. زادي الهَمّ .. ومطيتي ظهر حوت؟

انفلاتٌ للأرض عن مدارها . أم انتقالٌ للمَجرّة عن مسارها ؟

أهو اقترانُ البحار بالنار ؟ أم تزاوج النار بالدم ؟

أم هي المقابلة المستحيلة بين الحور والحجارة ؟

ثم .. لماذا لا يكونُ زعيماً أو ثائراً من هؤلاء الذين بهتتْ وطنيتهم وثوريتهم علي تراب البلاد .. ؟

أو الذين عفَّرَ تراب البلاد جلودهم ، فصار منهم المُلهم والمؤمن والمُخلِّص والرفيق والصالح والمَهيبُ والزعيم .. ومن يعتبر نفسه ظاهرة؟

هؤلاء الذين تلهث وراءهم الجماهير !

ولماذا لا يكونُ راهباً أو بطريركاً أو بابا .. ؟

فربما تقابلَ هناك ، مع الذي رفعه الله إليه ، ولن ينزل حتي تهمد أو تخمد براكين الأرض ! فهو ذو كرامة في السماء ، وذو علامة في الأرض . فلربما جاء إلينا بيقين .. يقين .. من اليقين . لعله يكشف لنا بعضاً مما نحن فيه من ذهول واكتئاب .

ولِمَ لا يكونُ قُطباً أو وليًّاً أو مَرجعاً أو آيـة... ، من أولئك الذين إذا مشوا إلي ربهم خطوة ..أتاهم الله هرولة ؟

هؤلاء الذين تَحُجُ إليهم الجماهير !

أيكونُ لأنني أُداومُ علي ذكر اسم الله الأعظم سبعة آلاف مرة في اليوم والليلة ؟

- ❖ كل ذاكر شاهد .. وكل شاهد ذاكر .
- ❖ إما أن تدعوني فآتيك .. وإما أن أدعوكَ فتأتيني .
- ❖ .. لكنني تأدبتُ مع ربي وجعلته يدعوني هُوَ ..هُوَ.. هوو .. هوو...

❖❖❖

انتهي وقتُ الخلوة ، وتخلَّفتُ عن وقت الناس .

استيقنتَ فتيقنتَ .. فاستسلم وسلَّم .

خرجتُ ، سرتُ قاصداً الدكان ، قابلني الناسُ بشيءٍ من الغيظ والرجاء .

تسلق الأولاد إلى الداخل ، فأخذوا ما يشتهون ، وتسابقت النساء . فاشترين لوازمهن ، وبعد أن هدأت العاصفة ، لم تخجل إحداهن . فراحت تحكى لي . عن بطلان مفعول الوصفات التي وصفها لهن أحد العرَّافين !

وصفةٌ أولى :

قضيب حنش أيوبي ، يُبتر وهو حي يتلوى ، مع شعرات من شارب أرنب بابلى ، يكون قد انتهي حالاً من أكل حزمة برسيم حجازى . ، وثلاث شعرات من رأس شهيد . تُنزع منه قبل أن يتجلط دمه ، مع سبع حبَّات .. هي عيون صقور .. تُخلع منها بعد التقاطها لرقاب كتاكيت من حمام الحمي .. يُغلَّف كل هذا في حجاب ، ثم يعبره "الرجل " منهم تسع مرات . ليلة ينوى وطءَ امرأته ، ثم يُعلِّقُ الحجاب في رقبته عقب نوبة الاشتهاء.. سواء تمت المواقعة .. أوتخاذلَ فيها .. أوعنها .

فقلتُ لهن : التفّتْ حول سيقانكن الأحناش . وعقرتْ أردافكن الأُسود . اذهبن إلي بيوتكن أيتها الخاطئات . واحرمن رجالكن من العَشَاء .

وصفةٌ أخرى :

بعضٌ من شعر رأس رجل بربرى . علي قليل من شعر عانة امرأة غجرية . مع خُصلة من ذيل حصان عنترة ، يُضاف خُصلة من شعر رأس هند بنت عتبة ! ، تُحرق معاً . ويكونُ دخانه بخوراً لكما قبل نوبة الإغارة !!

فقلتُ لهن : أنتن في حاجة الي ابن شداد نفسه !!

اذهبن إلي بيوتكن أيتها العاهرات. واحرمن رجالكن من النوم..

وبعد أن انفضَضْنَ، ذهبتُ إلي داري ، لاعبتُ عيالي ثم داعبتُ زوجتي . ثم واقعتها . أخشى أن تكون هذه آخر مرة أُوَاقِعها فيها . إحساس غريب يسيطر عليَّ !!

ثم رفعتُ الجنابة . ثم أكلنا وشربنا . ثم دخلوا إلي فراشهم . ودخلتُ أنا في نوبة من التسابيح . فجائني الهاتف مرة أخري ، نفس الصوت ونفس النبرات والكلمات ، لوأغمضتُ عيني لتخيلتُ أنني في خلوتي :

يا بن حتحوت .. حوت .. حوت .. حوت .. ووت .. ووت .. وت .. وت...

أنت صائرُ إلي الملكوت .. كوت .. كوت .. كوت .. ووت .. ووت....

وفي هذه الأثناء .. تلبَّستني رعشة . وغشيتني رعدة .. ثم قال الهاتف :

- هو من أثار نظري .. وهو باب محضري !

لكنني تجرأتُ وتساءلت :

- زاد السياحة أم زاد الرحيل ؟

= بل هو زاد السياحة ؟

- إذن فمددُ ربي يكفيني

= المدد مرتبط بالأسباب . وسوف تتقطع عنك الأسباب

- عطاؤه يخترق العوالم .

= ولو كان زاد الرحيل .. ؟

- أندم هنا ساعة .. قبل أن أعضُ علي سبابتي أبداً .

ثم كانت دبكة وجلبة واختلاط .. صوت يسأل وآخر يجيب .. !

- ما بال الدم ؟

= صار إلي ماء

- وما خبر النهر ؟

= تحول إلي دم

- وما بال النار ..؟

= صارت إلي تراب

- وما خبر الرجال ؟

= قضمت فحولتهم الذئاب !!

❖❖❖

حشوتُ المخلاةَ بالزاد ، وملئتُ القربةَ بالماء . أغراني دفءُ الكليم المفروش علي الكنبة . نِمتُ على صهد أوبَاره . الكنبة كأنها مَحفَّة . وأنا فوقها ممدود في شكل سهم بوصلة . يشيرُ إلي اتجاه النهر الذي سوف أغوصُ فيه . وأنفذُ منه إلى المجاهيل .

ويبدو أن النوم قد أغرقني ساعة أو تزيد ، شبع منها جسدي ، فأنا محروم من النوم منذ سنوات بعيدة . فبعد المؤبد .. قرَّروا تحديد إقامتي بالخلوة ، فلا أخرج منها غير تلك الساعة ، ويظل الخفير الذي يحرسني .. يدُبدب بكعب بندقيته علي عتبة الخلوة . مع نحنحاته وسُعاله طوال الليل .

طفا علي سطح ذاكراتي .. ما كنتُ رأيته في تلك الغفوة ، إذ رأيتُ - والصلاة علي النبي - أنني اصطدتُ سمكة ضخمة من أسماك " الحنكليس " لكنها هربت مني ، وكان أبي – حتحوت الأكبر –

قد قال مرة ، أن هذا النوع من الأسماك . إذا اصطدته .. ثم هرب منك . فهذا يعني هروب الحظ ..

سلّم يا رب سلّم .

وحينما قُمتُ . تَفلتُ عن شمالي .. ثلاثاً . ولو أنني كنتُ بين الصحو والغفلة . لقلتُ : هاجسٌ يراودني . أو واردٌ يُهاجسني . لكنني تيقنتُ من قوة تداركي وإدراكي . وهذه المرة أمرني قائلاً :

" الليلة .. وفي وقت السَحَر . اخرج إلي مكان كذا - وسمَّي ليَ المكان - مُصلي مفروش بالقش .. علي شاطئ النهر ، تحت شجرة مستكة ، تفرش ظلها علي قيراطين من الماء والطين ، أغتسل أو اتوضأ عندها وأصلي كل فجر . اذهبُ في وقت الفجر الكاذب ، أسبّحُ مع التسابيح ، وأتهللُ في التهاليل ، وأتواجدُ بالمواجيد . حتي ينبلج الفجر الصادق . أحياناً كان الشيطانُ يبولُ في اذني . فيتعطل الميقات الباطن عندي ، فلا يُقلقني صياح ديك ، ولا يوقظني نداء مؤذن !

ثم قال الهاتف : لا تذكر لأحد من أهلك أو قومك المكان ولا الزمان "

فقلتُ إن الأولاد والنساء يبُكّرونَ إلي شجرة المستكة ، لكي يجمعوا من بين شقوق لحائها النَّشْع الطيب ، حبَّات بللورية مجمدة مع ندي الصباح ، وسائلة في الظهيرة . من سائل رائق وشفاف . في لون الدموع ، وقَوام عسل النحل ، الحبة / القطرة منه في حجم واستدارة أثداء بنات طالعات إلي طور المراهقة .

" الرجال " عندنا يُحبُّونَ أن يلوكونهُ في أفواههم . بديلاً عن العَلك المعروف عندنا في الدكاكين ، ذلك المصنوع من الدقيق والسكر. ومُكسِبات الطعم والطرقعة ، ففيه من الخصائص ما يفوق أجود أنواع ذلك اللبان ، فهو يتميز بالليونة واللدانة والرقة والطعم الدائم .. غير المتناقص . غير المتلاشي !

خصائص كان لها الفضل في تكوين شخصيتهم . في حين قال العجائز .. أن فيه جلاء للمعدة وللأمعاء الغليظة والدقيقة . وقالت امرأة ممن تتفزز من وجناتهن بريق الأنوثة .. إننا يئسنا من كثرة ما قدمناهُ لـ " رجالنا " دهاناً واستحلاباً .. فما نفع منه شيء !

◆◆◆

يا حفيظ .. احفظ

يا واصل .. لا تقطع

يا موصول .. لا تَبْتُر

يا واجد .. لا تعْدمْ

سبحانك .. سبحانك – أين يكون اسمك الأعظم . كي أدعوكَ به علي الأرض . وتحت الأرض . وفي ظلمات الكون ..؟

أسألك الفتح .. ربى إنى أسألك الفتح ..

في ن .. أم في ق . في ص .. أم في حَم .. ؟

ويبدو أن الهاتف قد استغيَبَني ، فالأمرُ على ما يبدو جَلَلٌ .. جَلَل..

" الصلاة خيرٌ من النوم "

◆◆◆

وفي الموعد .. توجهتُ إلي حيث أُمرت ، كان لتلك المرة عبقٌ خاص . واندفاع مثل الاندفاع الذي يسحب شاباً نَزقاً لتحصيل شهوة . أوذلك الذى يسوق كهلاً لزيارة الكعبة .

القمر يهمُّ بالرحيل وراء الأفق الغامض . يزحف علي جانب السماء . كان في هيئة العجوز الأحمر الوارم .. متُجلط الحُمرة ؟ حافة الأرض تجذبه إليها ، آفاق الدنيا تشقشق وتزقزق فرحاً بتباشير الإصباح .

القيتُ عباءتي علي قش المُصلّي ، نزلتُ إلى النهر فتوضأتُ ، ولولا أنني كنتُ علي نهرٍ لتيممتُ ، فالتراب لا ينضب ، و .. لغراب يبل ريقه من النهر، لهو خير لي من وضوءاتي لألف صلاة !!

انتهيتُ من ركعتين خفيفتين تحية للمسجد . فإذا برجلين شديدين ، بيض الثياب . بيض الوجوه . بيض الرؤوس ، هبطا عليَّ هبوط اليمام علي ريش النعام ، ابتسما لي وصافحاني . وكأنما أصابني منهما مسٌ خدّرني . فقد زالَ عني ما كان ينتابني من رهبة وفزع .. ثم قالا لى : لاتفزع ولا تجزع ، فسوف نُؤهلكُ للطير في الهواء والسيرِ فوق الماء ، واختراق المحيط والسفر إلي الغويط ، ثم قدّما لي كأساً به لبن . أو هو شئ أشبه باللبن ، شربته ، فاشرأبت نفسي إلي كأس ثانية ، فقالا لى : على قدر طاقتك أسقيناك .

وبرفقٍ ..أخذاني . وبشفقةٍ .. طرحاني على ظهرى !

ماذا تريدان منى يرحمكما الله ؟

دُنُو أجل..أم تصفية حساب ؟

أخذتُ عقاباً علي شئ لم أفعله . تصادقتْ معي الثعابين والعقارب والسباع والحمُر الوحشية !

ما أبخستهم حقاً . ولا منعتُ عنهم شيئاً . أبيعُ بالتسعيرة ، ومن ليس معه أصبرعليه ، حتي تأتي مواسم الحصاد ..

نساء قريتي شَبِقات ، هائجات ، أكلتْ العِثّةُ ذكورة رجالهن ، فما يكون ذنبي ؟

وقتى موزعٌ ..

لله .. بين الحاصل والمحصول . والواصل والموصول !

وللناس .. بين العاقد والمعقود . والحاصد والمحصود !

اللهم هوِّن عليَّ سكرات الموت !

كانت الواحدة منهن . تظلُ تُحلقُ فيَّ . فأجاهدُ في رد خائنة الأعين .

كنتُ أودُ لوأنني قُبضتُ وأنا ساجد أوراكع ..

ثمْ .. فلا نامت أعين " الرجال " !

❖❖❖

وحينما لَمَستْ أناملهما جسدي ، غَرِقتُ في عوالم الطيف السبعة : طيف الماء .. وطيف المرجان .. وطيف البللور.. وطيف الحور.. وطيف الياقوت .. وطيف اللؤلؤ .. وطيف الغلمان !

وسَرَتْ بين أوصالي موجة من الخِدْر الرحيم .

" أشهد أن لا إله إلا الله "

وفي تلك الغفوة . رأيتُ في المنام ذكر المرموط . وهو يعض القطة السوداء . والتى عرفتُ فيما بعد أن اسمها الحافظة .

ومع أنني كنتُ واعياً لما يجري حولي . وكنتُ ألمحُ العجوز الوارم .. داكن الحمرة ، الهابط على منُحدر الأفق البعيد . كأنه فطيرة من شفق . وقد وضع سيفه على حافة الأرض . إلا أنني لم أكن أقدرُ على أن أهُش عن وجهي ذبابة .

" .. إذا جاءكَ الملكان المُوكّلانِ بك .. "

وسَرَتْ فى عروقي موجة من التنميل ، وشعرتُ بأنني ريشة تريد أن تُحلّقَ في انعدامات الوزن .

وكأن مُقدّمتي .. رأس حربة ، تتأهبُ لاختراق الأقطار والأوتار والمحيطات والمجسّمات ، وكأنني لم أعد أتنفسُ بالرئتين ، أهفو الى نزول النهر أو البحر . الزعانف على أجنابي تتلوى ، تُريدُ أن تُجدِّف . وكأن بصري حديد وسمعي حديد ، وقلبي من حديد .

أفقتُ ، عدتُ إلي ذاتي ، تفتحت أساريري . وكما لو أنهما لم يُكمِلا انتزاع روحي ، أوهما رجعا في كلامهما وأجّلا قبض الروح، فقد يكون في العمر بقية ، أو أن هناك زوائد وأشواك داخل ملمس وعائي وأحشائي عطّلت انسلاخ الروح ، أو أن روحي تتشبثُ بها . أو أنهما كانا يضعان طعم الموت علي لساني واكتفيا بذلك .

كنتُ مُستلقياً علي ظهري ، أنظر في الآفاق والأشياء من حولي، أشعر أنني عائدٌ من رحلة مشوارها ألف عام !!

وكما تسللا إليَّ .. انسربا مني .. أوعنّي . لم أجد أحداً حولي ، تذكرتُ شجرة المستكة . والنساء والأولاد وهم ينهلون من بين شقوق لحائها المُضَغ الشفيفة .

" الصلاة خيرٌ من النوم "

بدأت بواكير الزقزقة ، وعند فاصل الخيط الأبيض من الخيط الأسود . شاهدتُ عن يميني كيساً من قماش أبيض شفاف ، لمحتُ بداخله زيتونة كبيرة .. في حجم بيضة البطة ، نصفها أبيض ونصفها الثاني أسود .

فَطِنتُ الآن ، لما قاله أبي .. من أن رؤية " المرموط " في المنام . تعني فَقْد عضو أو جزء أو كيان من تكوينك .. هكذا قال لي .

لم تُقنعني مجرد الرؤية ، كنتُ أشعر بشيء ما .. يجذبني لما في الكيس .

وبلهفةٍ فتحتُ المَزر ، فعاد الهاتفُ من جديد .. قال :

... وهكذا .. تكونُ قد عاينتَ النفس وشاهدتَ الخلقوت !!

لك المعيون ولنا المعلوم . لا تلمس سِرَّك ، فسوف نُرسِلُ له "الحافظة " . قطةٌ سوداء تحفظه في جوفها ، وتلازمك في رحلتك

ملازمة الظل .. فإذا داهمك القبضُ في سياحتك . فسوف تُرجعُ إليكَ ما أُخِذَ منك . وأغلبُ الظن .. أنكَ مؤجلٌ .. حتي تقضي مهمتك !!

إياكَ .. إياكَ أن تُلْقِهِ في نهر .

فإنك إن ألقيته في نهرٍ .. لفَاَر ماؤه .. وغارت أحياؤه !

فأومأتُ .. ولم أعقّبُ . ثم قيل لي : انطلق إلي مهمتك الكبري .

المنقلب الثاني

الدوبليــر

حُفّت الخلوةُ بالمكاره . وحُفَّ الدكانُ بالشهوات !

ولو أنني وجدتُ رجلاً يقومُ في مقامي ، ويُنيبُ عني حتي أعود . هذا .. إذا عدتُ !!

رجلاً يتبتل ، يزعق ، يجأر . انفاسه تسري من مسام حوائط الخلوة ، فيطمئن الناس إلي وجودي وحضوري ، وما يداخلهم الظن أنني هربت من حياتهم .

رجلاً يذكر من قلبه ، يجأر من فؤاده ، يتبتل من شغافه ، لسانه ريشة على وتر الابتهال ، وروحه قمر فى فضاءات القرب والجلال ، ولا بأس فى تماوجات مغايرة فى نبرات ابتهالاته ومواجيده، فأن يظنوا أن برداً أصابَ حباليَ الصوتية ، أو إرهاقاً حلَّ بي ، لهو أفضل من أن تتلبسهم الظنون مرة أخري ، وينتشروا فى الأرض باحثين عنى. فهم يكتشفون انتفاخ بطون نسائهم يوماً بعد يوم . فيركبهم الشيطان . ويحكمون عليَّ بمؤبدٍ آخر

ولو تيسَّرَ لى الحصول على هذا الرجل . وبتلك المواصفات للخلوة ، فمن أين لي برجلٍ للدكان ، يقومُ على توفير السلع والبضائع ، يقول مثلما أقولُ ، ويفعل مثلما أفعل ، أخلع عليه جرابي، فيكون له سمْتي وطريقتي ، ويتعامل معهم كما أتعامل !

- أعطني ملحاً وزيتوناً وجبناً يابن حتحوت .

= حاضر يا سيدي .

- أعطني بسكويتاً وعسلية ياعم حتحوت .

= حاضر يا أولاد .

- أعندك كحل زيت ومرود ياشيخ حتحوت ؟

= عندي يا سيدتي .

- ....

= الصبر يا بنات

يأخذون منه الأشياء ويعطونه الفلوس .

أم أن رجل الخلوة .. هو نفسه رجل الدكان ؟

وهل سيدخل هذا على الناس ؟

أن يكون رجل الذكر والمواجيد .. هو نفسه رجل الكمون والعسلية ؟

فرجل الخلوة لن يَرَهُ أحد ، فصوتٌ مسموع ، وذكرٌ مرفوع ، وابتهالات محمومة !

أما الواقف فى الدكان ..!

فإن الناس يعرفونني جيداً ، تقاطيعي ، صوتي ، طريقتي فى الأخذ والعطاء ..

ولو أنني مَسحتُ على أحدهم مِسْحتي ، فتمثَّلَ هيئتي وطريقتي ، فَشُبِّهَ للناس وَغَمِيَ عليهم ، وآمنوا بأن الواقف أمامهم ، هو بعينه ابن حتحوت .. بشحمه ولحمه ، لربما تصبَّر ، وأعانه على تصبُّرِهِ ما كنتُ ربطتهُ له من أجر ومقابل . غير أن الأمر لن يسلم من أن يظل - وطالما هو واقف بين الصناديق والأجولة - تلك التي ثلاث أرباعها..

مأكولات ومشروبات وممصوصات ومُقرقزات .. يظل يبتلع حبة وراء قطعة وراءها شربة من زجاجة بيبسى أو ميرندا !

وحينما يدخل عليه أحدهم . ويكون شدقاهُ مشغولين . فسوف يُعطي له ظهره . مُستقبلاً الأرفف والصناديق والأكياس ، مُتظاهراً . برص قطع الصابون أو زجاجات الزيت .

أواستعدال قوارير الخل والشربات . أويجثو على ركبتيه مُتحايلاً لرفع جوال أوغلق صندوق .

ولو أنني انتهيتُ هكذا من هم الدكان ، فكيف لي برجل يتصبَّر على ما للخلوة من تكاليف وعزائم ؟ رجل يكون له القدرة على التدرج والتواصل فى إيصال ووصل الحبل بالله . فليس أي واحد يقدر على تكاليف الخلوة وعزائمها ..

أن يكون : لا أحد فى الكون إلا أنت وربك !

تشتبك معه بالذكر ، وتتذلل له بالمناداة والمناجاة ، فيأنس بالتسمع ويقول : عبدى .. اذكر واطلب وتذلل فإنى أحبُ أن أسمع صوتك .

ثم .. هَبْ أنه يذكر بلا قلب ، ويجأر بلاعاطفة ، فما يُحفِّزهُ ويُعينهُ على مواصلة ذلك ؟

أي شئٍ يجعله يصبر ويتصبَّرعلى القيام بتكاليف وجهادات ومجاهدات العزلة ؟

رجل الدكان . وقد عرفنا نقطة ضعفه . فما يُغري هذا على المكابدة . ولم يكن مؤهلاً لها ، ولم تَزْهَق رُوُحُه من عطش فوق رمل ساخن . كما لم يقرص بطنه مغص في بادية يعوي فيها الجوع . ولم يَحز أو يَكِز علي عظم ساقه جنزير فى شجرة عتيقة .

وهل لو حصل له الحافز..أيكونُ هذا كفيلٌ بأن يجعله ينخرط ويندمج فيما بينه وبين ربه ؟

وإذا صبر على تكاليف الخلوة ، أتراه يصبر أسبوعاً ..شهراً ..عاما ؟

سياحتي فى الملكوت ..تري .. كم ستأخذ من الزمن ؟

وهل سيتكثف لِيَ الزمان ، وتنطوي المسافات خلفي ، أم سيتمدد الوقت ويستطيل .. حتي أرجع لهم .. مع ظهور الكوكب الأخضر مرة أخرى ؟

يتكثف لِيَ الزمن وأطّلع فى لحظات علي براهين ومضامين . بما يحتاج إلي دهور وعصور ؟ أم أنني سأذهبُ ، ثم تنغلق ورائيَ البرازخ الفاصلة بين كل معيون وكل مستور !

❖❖❖

وإذا رفع ذلك " الدوبلير " صوته ، فهل يكون باعثه ما ينتابني من حالات وأحوال . مما يجعل الطيور تتوقف فوق الخلوة ، كما أنها تجذب الثَّعابين فتخرج من مكامنها فى الجحور ، وفي حطب أسطح الدور. ومن شقوق حقول القمح .. وهي تتلوي وتتراقص مع نداءاتي وابتهالاتي ! حتي إذا حلّت بي حالات الكسل والغفلة ، استأنفت الطيور رحلاتها . وعادت الزواحف متسرسبة إلي مخابئها !

❖❖❖

من الممكن أن تُجن وأنت صامت ، فلتُجن وأنت تلهث بذكر الله !!

رجلاً يذكر الله حتي يقول الناس أنه مجنون . يتفاني فى الوصول ، فيقول الله له : هوِّن عليك يا عبدي ، فقد مسحتُ من صحيفتك كل ما تحدثت به نفسك من آثام ولم تفعلها . هوِّن عليك

يا عبدي ، فقد تجاوزتُ عن خطايا كل من حمل هموم العالم على كاهله .

ينُغِّم الموشحات ، ويتسلطن بالمواجيد . ويتشح بالأوراد ، مِلحاحٌ فى الزعيق على ربه ، مُتطفل فىالطرق على بابه ، لا يكاد يسكت .. إلا ليأخذ شهيقهُ . أو لغلبة النشيج علي مُنخاريه ..

يا الله ...يا الله ..يا الله ....

سُبُوحٌ قدوس ...رب الملائكة والشياطين .

يا الله ...يا الله ....

خلقتَ الإنس من نار ، وبعضهم من طين !!

يا حي يا قيوم .

كلمات الرحمن .. فلا تضعون بجوارها هيروغليفية عشتاروت ، ولا تصنعون منها أحجبة تعلقونها فى رقابكم، أو تتحزمون عليها . سوف يمنحكم ربكم فرصة أخيرة ، لكنها أبداً .. لن تكن ألف عام أخري !

الزعفرانُ مِداد .. والخيزرانُ أقلام ، رسمنا على ظهرك وعلى فخذك وعلي كتفك .. عقارب تغزغز وثعابين تقرص وسباع تنهش . ماء المُحاياه أسقيناكم . وطعام أهل الجنة وعدناكم ، فتَبلَّدَ الإحساس . ونَشَطَ الوسواس . وخرجتم عن طور الناس . كتبنا على قلوبكم حروفاً وكلمات ليست من أز الأباليس .

كهيعص

الكاف ... كيف انبطحتم ؟

الهاء ... وهئتم لهم !

الياء ... يغلي الدم فى عروقكم ولا يفور .

العين ... عليكم تبكي

الصاد ... صحف إبراهيم وموسي .. جاء فيها . وما كان حديثاً يُفترَي . الاّ تكونوا جبلاً من رمل .. ولا تجمعكم صخرة !

❖❖❖

. الدكان مغلق ، والخلوة لا صوت فيها .

. ربما يكون مريضاً فى بيته ، أوفي إحدي المصحات .

. فريق يبحث فى الحقول ، وآخر يترقب عند هويس النهر !

. فتّشوا في نسائكم ، أيها بطنها انتفخ ؟

. امراتي حامل ؟

. وأنا ابنتي تتوحم .

. ومن أي الرجال حملت نسائكم ؟ الرجل حدَّدتم إقامته . ولا ينزل غير تلك الساعة التي يقضيها على أعينكم ، كفي افتراءاً بالأبرار . ثم إن الرجل قد انهدَّتْ قواه . وغارت عيناه . وتقوَّسَ ظهره .. بعد الذى عاناه فى بادية الصحراء .

. لا تكذبوا على أنفسكم ، فها هي نساؤكم . تأتي الواحدة بعدالأخري ، وتعترف بأنها رات فى المنام أنها ترتدي فرو " القاقوم " . وأنتم تعلمون أن التى تري فى المنام أن على جسدها هذا الفرو.. فهي مُبرَّأة من كل دَنَس !

. انظروا من أي الرجال فى القري المجاورة .. حملت نساؤكم وبناتكم ، أليست حقولكم تجاور حقولهم . وترسلون حريمكم ليعزقن ويروين ويزرعن .. وأنتم تتشمَّسون بجوار حوائط دوركم !؟

تتحزم المرأة على وسطها ، وتنحني لتسليك الخطوط والقنوات ، أو لزرع البذور. أو لتحويل مجري المياه ، فتضوي صفحات سيقانها

البيضاء ..البضة . تحت وهج الشمس ، ويُقبلُ عليها جاركم ليسألها عن .. إن كانت قد انتهت من الري أم لا . حتي يتناوب هو ري أرضه . وربما يُبدي لها استعداده لمساعدتها ، بينما عينه تتمس لرؤية فحلين من الشهد . يترجرجان علي استحياء .. مع كل خبطة فأس !

وإذا كان عليه هو الدور فى الري ، وحضرت هي بعده . فإنه يُؤثرها على نفسه .. ويقدمها لتروي أرضها !!

❖❖❖

- هلا أقمنا له مأتماً .

- لا .. فربما عاد .. فنقع فى حرج .

- صرنا معرَّة عند ابن حتحوت ..فهرب منا !

- بل قل تبرأ منا وهاجر .

- معه حق ...أليس هو الفحل الوحيد بيننا ؟

- بل قولوا زهق من حياة الخلوة وحنَّ لماضيه .

- نستغفر الله ....الرجل أخذ عقوبته وانتهي الأمر .

- أحلق شاربي .. إن لم يكن يعيش الآن تحت أضواء المدينة .

- شواربنا حليقة حتي وهي بارزة في وجوهنا !

- بلغني أن رجلاً قال : سمعتُ رجلاً يقول : أن امرأة شاهدته وهو يخرج من سينما المدينة . وكان حليق اللحية ويلبس الكرافت وفي يده المحمول !!

- لا تُسيئوا الظن بابن حتحوت ، إنه رجل طاهر من ظهرٍ طاهر .

- أما أنا فقد سمعتُ أنه تزوج بامرأة ميسورة الحال من قرية بعيدة.

- هرب وترك زوجته !!

- وممن يخاف عليها ، هي فى أمان بطبيعة حالنا .

- أما أنا .. فقد رأيته بأم عينيَّ هاتين . وكان ذلك عند الفجر ، وقد كنتُ ذاهبة إلي ماكينة " خَرْج اللبن " . وكانت معى زميلاتي من الفلاحات .. إنه هو - ابن حتحوت - وكانت تقف أمامه امرأة . كأنها قرص من شمع العسل الأبيض . حطَّ عليها جيش من نحل الجناين المجاورة . وأبداً .. أبدا .. لاتغيب عني ملامح هذا الرجل . فليس الزوج وحده هو المركوز فى خيال امرأته .. فلربما تحتفظ امرأة فى ذاكرتها . بصورةٍ لرجل لم يضع أنفهُ على أنفها مرة !!

إنه هو.. ابن حتحوت بتقاطيعه ووجهه الأفريقي النحاسى المحروق ، وعينيه اللتين اكتسبتا شكل عنب البادية ..الأحمر . وبقهِ الواسع وشفتيه اللتين صارتا فى غلظة الجنزير، وفكيه العريضين . وطوله الجهم الذي انحني قليلا .

- اللهم اصرف الظن السئ عن الباطن الحسن . انصرفي أيتها الخاطئة .. انصرفي يا عاهرة أنت وهي ..وهى .. وهى .

انصرفوا .. أيها " الرجال " وابكوا على خيبتكم.

❖❖❖

وحتي الآن .. لم نعرف من هو ذلك " الرجل " الذي نَشَطَ عنده - فجأة - هرمون النخوة ؟.

وتكثر التخمينات والإرهاصات ، شأني في ذلك شأن أي رجل غامض .

فاضت رُوحي إلي بارئها .. قبل أن تحدث بسببي فتنة ، وإن الناسَ ليستعيضون عن عجزهم فى تفسير الألغاز والظواهر الغريبة . بكثرة الفتاوي والتخمينات . فإذا كان اللغزُ من نوع الأطباق الطائرة .. فبكثرة التدخين وأكل الباذنجان . وإذا كان اللغزُ يتعلق بمصير

دولة / أمة / شعب – فبكثرة تعاطي الجنس . (طبعاً يُستثني من هذه رجالنا) فهم يستعيضونَ عن هذه بطرقعة اللبان والمستكة !

فلاعشتُ ولا بقيتُ ما دامت رقبة " رجل " منهم مكسورة على صدره ، ورموشه محنيَّة على جفنه . مما يجعله .. إذا ضربه أحدهم على خده الأيمن.. أدار له خده الأيسر !

❖❖❖

خرجتُ من مواجيدى . أخرجنى صياحهن . فملائكة الوصل تكره الندب واللطم والصراخ . ومن يتصل بالمخلوق .. لابد أن ينفصل عن الخالق ..ولا يتواجد فيه . ففى حضرة المولى ..لاأحد فى الكون إلا أنا وربى !

وبينما أنا جالسٌ على قش المُصلى . اتأهبُ لبدء المُشوار . رأيتُ كتلة سوداء . تزحف على الأرض !

كُنَّ .. كأنهنَّ غربان تحجل . أوقل كأنهنَّ مثل محصول وفير من الباذنجان الأسود. يتدحرج على بر الترعة . كُتَل السواد تتماوج . كُنَّ يهتفنَ بعصبية من يتظاهرون لتغيير نظام فاسد !!

الهتافات الثائرة تتساقط من صخبها ثمار التفاح والتوت والجميز:

" سافر.سافر يا حتحوت

علقة تفوت ولا حد يموت

اركب يلّلا على الرحَّال

يمكن تلقى قرون الحوت "

ثم تنقلب دفة الهتافات . ويهتفن فى بجاحة ظاهرة :

" انت الفحل اللى عرفنـاه

متجوزة أو بنت بنـوت

الرجالة اكلتها العتّـة

يَّلا نغنى توت تـوت

ميمى وسوسو ولولو وهيثم

فين أيامك ياشلتـوت "

ثم اصطففن على طول الشاطئ . التقطن الطوب المتناثر. ورُحن يتمطّعن ويخبطن صدورهن . كأنهن فى مشهد من مشاهد جنازات العزاء الحُسيْنى !

ثم يقذفن الطوب فى أدغال الشجر.. وهن يهتفن :

" لو تمسك لىغراب البين

أنتف ريشه.. واولع فيه

واقطع دابره من الجناحين

قبل ما يخطف نور العين "

وبعد ذلك توجَّهن إلى المقابر القريبة . ورحن يعزفن شكلاً آخر من أشكال الغسيل والتطهير . مابين نحيب وأنين . صعدن إلى التلّة الرابض فوقها الأموات . ورُحن يُعفّرن أرجلهن وهدومهن وأيديهن من سبخ المقابر.. ثم نزلن . فتوجهن مباشرة إلى بيوتهن .

كانت المرأة تدخل دارها.. أول شىء تفعله .. هو أن تقوم بنفض ما علق بهدومها وقدميها من تراب .. تحت قدمى " زوجها " !!

❖❖❖

المنقلب الثالث

وقـائـع الخصـــي

لم أكن قد انطلقتُ حينما أُمرت ، فقد اثقلَتْ راسي سِنةٌ من النوم ، الشواهد تؤكد أنها مرت عليَّ وأنا جالس ، بل ومتمكن ، وإذا بي أري - خيراً والصلاة على النبي – أن رجالاً أشداء ، تنشقُ عنهم كهوف ومغارات وحصون ، فور خروجهم .. راحوا ينفضون عن أعينهم تراكمات من تراب وعفن وعطن . طري ولزج ، كأنه الرَّان والأدران لألفِ عامٍ دافئٍ ممطر شتاءً .حار جاف صيفا !!

أنيابهم كأنها حِراب ، وأظافرهم كالسفافيد ، عماليق انطلقوا من قماقم ، جيادهم زلزلت الأرض . فانزاحت عن وجه القمر المخسوف ، فارتدت إليه ابتسامته الفضية الهادئة . أبي – حتحوت الأكبر – قال مرة : لو أنكَ رأيتَ فرساناً فى المنام ، فهذا يعني أنك سوف تقتحم وتتقدم .

- الكرامةُ للجياد .

= بل للفرسان .

- هي للجياد .

= للفرسان .. للفرسان ...

فلا فرس يتمخطر ويتدلل ويتثني ، ويهجم ويناور ويكر ويفر. إلا إذا كان فوق سرجه فارس .

اقتحم الرجال غابة ، منهم من أمسك برقبة أسد ، ومن أطبق على رأس سبع ، ومن أحكم قبضته على فكي فهد .

كان الفارس يُطبق بكلتا يديه على شدقي الضرغام . فينفتح البُق الغائر، فيُسرع الفارس الآخر ليُلقِمَهُ حجراً ، فيستقر الحجر بين الفكين ، ثم يجتهد فى خلع أسنانه وأنيابه وأضراسه ، وحينما وصل إلي ضرس العقل ، وكان ذلك عند أسد أرعن ، صرخ الأسد - قليل الخبرة - صرخة .. أفقتُ من غفوتي على إثرها .

فرغتُ من صلاة الفجر. تأهبتُ لبدء الرحلة ، كاد قلبي ينخلع مُتعلقاً بالكيس الأبيض الشفاف . لكنني قهرته وغادرتُ المُصلّى وانطلقت .

اللهم أنت الصاحبُ فى السفر. والخليفة فى الأهل . أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب . اللهم اقبض لى عرض الأرضين السبع .

لم أكن أُسرِعُ الخطي ، فلماذا كان الطريقُ ينطوي ورائي ؟ وكأن على كل ضلع من ضلوعي ألف جناح يرفرف ، (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) الصبحُ يتنفس شهيقَهُ البكْر . النساء والأولاد أسراب تتسرسب خارجة من فِجاج القرية . يتجهونَ نحو الشجرة . رزقٌ ربَّاني ينتح مع ندي وشذي الصباحات النديَّة . على هيئة سائل لزج ، في طيب المسك وقوام عسل النحل .

فُرادي" الرجال " من الدروب والمدقات والمداخل والمخارج . يتواترونَ نحو الحقول . كنتُ أحذرُهم ، فلا أحبُ أن يراني أحدهم . فلو أن أحداً منهم قابلني ، لربما نادي على الناس ، واستقووا عليَّ .. وجرجروني إلي محبسى فى الخلوة . فأتعطلُ عن الرحلة .

تُري : هل فى مقدور أحد أن يعطلني عن رحلة كهذه ؟

يُساورُني يقينٌ بشيئين :

الأول : أنني مؤَجلٌ من الموت حتي تتم هذه الرحلة !!

والثاني: أن أحداً لايمكنه أن يقف فى طريقي .. حتى لو كانت مباحث أمن الدولة !

فطريق ممهدة . وأرضين مفتوحة . وبحار تُفضي إلي محيطات . عُلويَّة وسُفليَّة . ومطيَّة كونية فى انتظاري عند أقرب نهر . ونداء علوى .. يُمسك بزمامى .

لكن ..وكأن الذى يخاف من العفريت ..لابد أن يطلع له !

تذكرتُ أنني أكلتُ فجلاً فى منامي الليلة الفائتة ! فيبدو أن المنام تحقق . أبي – حتحوت الأكبر – كان قد قطع حديثه فجأة وقال . أن من أكل فجلاً فى منامه ليلاً.. يقابله في الصباح رجلٌ تافه . وها هو قد طلع عليَّ .. ذلك " الرجل " التافه !

كانت رقبته مكسورة على صدره ، أراد أن ينظر إلي وجهي . فكان يعافر ويجاهد . كي يرفع وجْهَهُ ليتطلع إليَّ . بينما خرزتا عينيه تبرقان كعينى ثعبان محاصر . تكلم معي فى نبرة مائعة – لا تليقُ إلا بالنساء ، ولا وقت عندي للوقوف مع هذا الرقيع :

- ابن حتحوت ؟ يا حلاوة يا أولاد ! طبعاً شبعت من نسائنا ..ألستَ أنت الفحل الوحيد فى البلد . قل لى : كيف حاله عسل النساء ؟ لقد نسينا طعمه !!

ثم راح يُغنِّي فى بلاهة :

" الدنيا دي ناسها غـدَّارة

والكلبة الوالدة .. بعزوتها

بتهوهـو وبتعمل غـارة

تتمرد وبتسأل ليــه ؟

البغل ينط على حمارة !! "

ثم انطلق المعتوه يرمح . مثل جحش عبيط لايعرف ماذا يريد .

وكان ينشد وهو يجرى :

" الله ..الله ياحتحت .. جاب اليسرى

الله.. الله ياحتحت .. فُك الأسـرى "

حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل . ماذا أفعل لهم أكثر مما فعلت ؟ دواؤهم فى لبن العضفور ، وكل العصافير التى اصطدتها من أجلهم – لا لبن فيها ، فقد كانت حوامل !

وما قُضِمَ هُضِم .. غاب عنهم أن باب المعجزات الهابطة من السماء قد أُغلِق . وانفتح فى مكانه باباً للمعجزات الصاعدة من الأرض !!

❖❖❖

ينام الرجل منهم ويكون سليماً مُعافى ، فيقوم من نومه فلا يجد بين فخذيه ما كان قد نام عليه . اللهم إلا نتوءاً فى شكل ما يتبقي من ذيل جدي قضمه ذئب !

ينام .. وذاك بين وركيه منكمشاً أو يقظاً . تبعاً لما نام عليه من مزاج . وحينما يقوم ، أول شئ يفعله الواحد منهم .. يفتِّشُ عن مدرار للبول . فلا يجد شيئاً سوي ثقب فى ذلك النتوء ، فيضطرُ إلي فتح ساقيه ، ويأخذ فى سح الماء الدافئ على نفسه !

قد تُمتِعُكَ تلك المخالفة للجبِلّة . حين تجد سرسوب الماء وهو يتجه نحو الوراء . كما تفعل النياق . ربما تضحك ... وقد تشمئز !

وحينما تعلم أن هؤلاء هم الـ " رجال " الذين تنتمي إليهم .. تكتئب !!

يغدو الواحد منهم إلي حقله أومدرسته أودكانه ، وقد انكسرت رقبته على صدره . وهو لا يجرؤ على مصافحة أحد من أقرانه " الرجال " أو الذين لا يزالونَ فى حكم الرجال ، فلا أحد يتمني أو يرغب أو يتودد لمصافحته. فهو ليس عنده مايستحضر شهوة امرأة . كما انه لا يملكُ ما يثيرُ الرهبة فى نفس رجل . حتي أقرانه الذين هو مثلهم .. وهم مثله .. يقرف بعضهم من بعض ، فكل واحد يتصور أنه - لولا وجود عاهة الآخر - ما برزت ولا لمعت . ولا عرف الناس بعاهته وعُقدته . فالبعض كوَّنَ الكل . والكلُ تسبب فى تلميع نقيصة البعض . ولا أحد أصبحَ " له عين " يرفعها فى وجوه النساء ، ولا أحد عاد لأنفِه شموخ .. يُشيرُ به إلي وجوه الرجال .

يضحك من اكتشف ذلك عنده اليوم .. علي ما كان لاحظه من حركات وإشارات شاذة على غيره بالأمس .

وينام الذي تعري وانكشف أمره .. أمام زوجته .. بما تبقي له من قضمة الذئب . وأمام الناس .. برقبته المكسورة علي صدره .

ينام على أمل أن ينهض .. وهو مستور الجانب . وقد عاد له ما سُلِبَ منه ، ولو منكمشاً أو منزوياً . فإذا به يقوم ولا يجد سوي ذلك النتوء !

القِلةُ القليلة - ممن لا يزالون رجالاً - امتنعوا عن النوم . فيظل احدهم مُبحلقاً إلي السقف طوال الليل ، فإذا غفا .. يقوم فزعاً .. مرعوبا .. فلابدَ أن ذئباً من ذئاب البرِّية . أو ربما ذئاب الجن .. قد سقط عليه .. وانبري يعوي فى خرابته .

❖❖❖

.وكانت المرأةُ منهن تري فى المنام .. أنها معجبةٌ جداً بحسن وجمال وركيها . فتقومُ من نومها فى الصباح .. لتجد زوجها وقد تم خصيه !

باحت امرأة ممن يتفزر من وجناتهن عَرَق الأنوثة .. قالت : سار "رجلي" ذات صباح وهو مكسور الرقبة ، فطلع عليه رجل من قرية مجاورة ، فقام الرجل بضرب " الرجل " على خده الأيمن .. هكذا وبدون أسباب !

هو جارنا فى الغيط ، وهو دائم الاعتداء علينا ، مع أن حمارتنا لم تقطف من برسيمه عوداً ، ولا جاموستنا .. لاكتْ فى زرعه مرة ، وكان أقصي ما كنا نفعلهُ له .. أننا نقوم بغلق الباب الذي يأتينا منه الريح !!

ومع ذلك .. فقد أدار له " زوجي " خده الأيسر .. فقلتُ له :

يا " زوجي " : إن لك أنياباً تقطع بها الناشف والطري . فكان يشيح بيده قائلاً : اخرسى ياوليَّة . فلن أنتقم . وسأجلسُ على حافة النهر.. وأنتظر حتى تأتى لى جثة من لطمنى !!

وبعد أن رجعنا إلي دارنا .. نام . وبعد أن قام من نومته ، تمطَّع فى الهواء . ويبدو أن الجوع قرصه فى بطنه ، فكشفَ حلة الطبيخ ، فوقفتُ أمامه وأزحته بعيداً عنها . فقط سمحت له بشربة ماء .. حتي لا يهلك ويُحسبُ عليَّ رجلا !

أُحاولُ إقناع نفسي بأن ظل " رجل " أفضل من " ظل " حائط !

لكن شيئاً ما .. يقاتلني من الداخل .

ولما شرب الماء تجشأ وعطس .. مثل الغنم حين يتجشأ ويعطس ..عندما يَعُبُ الماءَ وبلعومه مملوءٌ بالتبن !

كان من الطبيعي أن يتجشأ ويكح . لكنه تجشأ وعطس كالأغنام . فالأغنام إذا غلبتها الكُحة وبقها مملوء بالتبن.. فهي تخرجها فى صورة عطسة ،ولا تكحُ أبدا. ولما سألنا العُربان فى ذلك قالوا : إن الغنم لا تكح ولا تهجم ولا تقتحم ولا تثور ولا تفور .. من باب التقية والخوف علي الليَّةِ السمينة !!

وفي حرالظهيرة طلع " زوجي " إلي سطح الدار ، وخلع ما على نصفه الأعلي من هدوم . ثم صنع لفافة من القش وبلّها بالماء، ثم طوّقَ بها رأسه ، وظل جالساً تحت شمس بؤونة ، وحينما يجيء الليل .. يرتدى ما كان خلعه من أردية ، ويُنزلُ عمامة القش من علي رأسه ، ثم يقفُ على ساقٍ واحدة . يصبر .. ولا يُبدِّلها بالأخري . وفي هذه الوقفة .. يكونُ مشتبك الأصابع . واضعاً الكفين فوق الرأس ، ويظل هكذا حتي يطلع النهار ، فيخلع ما علي نصفه الأعلي ، ويضع عمامة القش المبلّلة فوق رأسه ، ثم ... وهكذا .

اتمَّ على هذه الحالة سنة كاملة . اشفقتُ عليه ، فصعدتُ إلي السطح وأخذته من يده ، لكنه جذب يده مني . وهو يعض علي سبابته اليسرى !

❖❖❖

الحياةُ .. أُنثي راقصة ...

صبغة من عالم نسائي أنثوي ساحر، فلا ترفع عينك إلا علي أنثي، ولا تعيرُ أذنك إلا وسمعتَ صوت امرأة . امرأة تنادي من شرفة . وامرأة تصيحُ فى السوق . وأخري تغنج على مسرح أو تتقصع على شاشة (زُيِّن لكم حب الشهوات من النساء ...)

لكم أنتم .. أيها الرجال / الرجال ، وقود ومحارق وبواتق وأفران الحياة .

أنثي من عالم المرأة وأنثي من عوالم مختلفة . فراشة /حمامة / نعجة / بقرة /دجاجة ! فلم نعد نري ذكور الفراشات وهي تغازل إناثها بأجنحتها الملونة ، ولا ذكور الحمام وهي توشوشُ رفيقاتها بمناقيرها المسمسمة . ولا فحل من فحول البقر أوالجاموس وهو يقزح على أُنثاه .

الفصيلة الوحيدة التي لا تزال تقاتل وتكافح .. بل ومتماسكة فى هذا الشأن ..هي فصيلة الكلاب ! .. والتى تواطأت معها القطط على حساب نفسها .. وسمعتها الرقيقة . وضياع التراث العفيف والشفيف لها . فى سبيل إرضاء وإشباع رغبة الكلاب .. فى غريزة الجنس والهوهوة .

كانت الكلاب تمارس فطرتها فى أي مكان . في الشوارع والحارات وعلي النواصي وفي الأجران وفوق الأسطح . أمام النساء والأولاد .. وأيضاً أمام " الرجال " !

صارت لا تمارس غوايتها إلا بجوار نهر أو بحر أو بركة . وإن كُنَّا حتي الآن لا نعرف السر الموضوع فى الماء ، والذي من شأنه فض الاشتباك بين الطرفين !

وتكون الظاهرة أن الكلب.. ما إن يعتلي ظهر كلبته.. حتى تتجمع حولهما كلاب الحوارى . الذكورُ منها تلهج . أما الإناثُ .. فلعابها يسيلُ على الأرض .

يتحركِ المشتبكان فى اتجاهين متعاكسين . وقد هدأ سُعار ما بهما من ثورة أو فورة . وتكون الغلبة لأيهما يشد أقوي . فيما تكون الكلاب المتفرجة تتسكع حولهما . وتروح تشمشم فيهما وهى ساهمة . عليها سكينة وذهول ، وكأنه قد وقع عليها " سهم الله " . لا تطيقُ أن تُشاغِلها أو تُناوِشها أو تُهارِشها الجراء الصغيرة . التى تكون مُنْدسَّة بين أرجلها . ولو أنها ناوشتها أو ناغشتها .. وهى على تلك الحالة من الذهول . فسوف يصيبها هوس . فتعقرها على إثره عضاً خفيفا .

حتى القطط .. صارت القطة لا تُعطي ظهرها إلا لكلب !

القطط وهبت نفسها للكلاب !!

أين أجدادكِ .. وأصل جلدتك من النمور ؟

آه لو أنها كانت تعلم ما سوف يصل إليه حال ذريتها وخِلْفَتها.. مع مرورالسنين والعصور ، لكان آخر نمر يحرص على أن " يربط المبايض " لآخر نُمرَة !

أوكان يحرص على خصى نفسه . حتي تنقطع سُلالتهم المُرقّطة .. المجيدة . لكي لا تصل أواخرها إلي ما وصلت إليه !!

وحينما كان القط يزغر زغرته الثاقبة لقطة ، تجدها وقد هرعت باحثة عن أقرب كلب لكي تسير فى حِماه .

هذه الفِطرة الكلبية .. كانت أول مظاهر وظواهر التوحش الجنسي .. العلني . والتي كانت السبب فى تفتح عيون أولاد القري والعِزب وبوادي الصحراء . حتي أننا صرنا نرى مظاهر هذا التوحش علي نجيل الحدائق العامة ، وعلي مقاعد الكورنيش ، وعلي الفضائيات . مشاهد متوحشة يرجع الأصل فيها للكلاب !

إلا أنه فى حالة الكلاب .. تجد المُشتبك مع كلبته .. هو كلب واحد فقط !!

والمُلفت للنظر أن كلاب القري محظوظة .

أولا : لأن " نفسها حلوة " وتأكل ما يقابلها . دجاجة نافقة أو جيفة حمار أو خِراء طفل يكون بجوار حائط .

ثانيا : لأن الذكور منها تتكعبل فى بغيتها من الإناث ، في أي حارة أو خرابة ، وقتما تطلب .. وحينما تنبح عليها غريزتها .

أمّا كلاب مثل البولدج والسلوقي وكلاب سان برنارد .. فهي كلاب أرستقراطية ، هي أنواع " نفسها عالية " لا تأكل أي شئ يقابلها ، وليس من السهل أن تجد أُنثاها فى أي مكان . فهم يقومون بالحجز لها علي أول طائرة .. فور اشتعال شهوتها . كي تتمكن من إطفاء نزوتها من جهة ، ومن ناحية أخري – تحافظ على استمرارية

نقاء النوع وسمُوه . فلا ذكرها .. تحمل منه كلبة الخراء ، ولا أُنثاها تحمل من ذكور جيَف الحمير .

صحيح أن تلك الأصناف " الواطئة " محسوبة عليها في صنف الكلاب . لكن النوع سلالات والسلالات فصائل والفصائل عروق . ولابد أن تتوافق وتتطابق وتتكافأ ذبذبات وموجات الشهوات والنُطف .

وكانت أن نادت أصوات . تريد إطلاق حرية تلك الذكور الرفيعة عند جوعها . علي الكلبات البلدي . وكان برنامجهم يتضمن عدة بنود منها : تلاشي الإحساس بالعنصرية . وذوبان العروق فى الفصيلة الواحدة . الفرع الواطئ يذوب في الفرع العالي ، وذلك يعمل علي زوال العُقد النفسية . عند من يشعر بأنه دون . أومن .. هو دون فعلاً .

كما يعمل على كسر أنف هذه الكلاب العليا .

لكن أصواتاً معارضة رفضت الفكرة . وكانت حيثيَّات الرفض:

ـ أن كلابنا ربما أُصيبت بمرض كوني مُزمن .. وقد يُوَّرث . ويُخلِّف وراءه فصائل أخري . إما تكون أكثر شراسة .. أو تكون أكثر دناءة . مما يجعلها تُعرِض عن الشمشمة . واللف والدوران حول الدور وفوق الأسطح وبجوار الزراعات وخلف مرابط الجاموس .. تلتقط فأراً أو عِرسة .

ـ أن إناث كلابنا .. مهما صنعتَ لها ، فلن تخلو مواليدها مما تحمل آبائها من أبعاد دنيئة .. أقلها الشمشمة بجوار الحوائط .

❖❖❖

... وهذا العالَم .. مفاعلٌ نووي .. وامرأة !

حتي المُحصَّلة ..يسمونها قنبلة .

يزرعون التوت فيطرح لهم الفراولة ، ويدفنون بذور الخيار فتخرج لهم القِثَّاء ، ويزرعون القرع فتكون الثمرة هي الكوسة .

كثرت فى حقولهم الملوخية والرجلة والطماطم والكاكا والسبانخ والباميا واللوبياء والفاصولياء والبازلاء . وكان الكثير منهم يرون فى المنام أنهم يُقرقِشونَ الفاصوليا الجافة ، فيصبحون وهم يبحثون عن فحولتهم فلا يجدونها .

ذكور النخيل .. التي كان دقيقها يُعفِّر قنوان النخلات . فى مواسم الرياح واللقاح . لم يعد يتطاير .

الأرض تطفح خصوبة ، حتي السماء بقرة حلوب تدلق عليها المطر!

وعاماً بعد عام .. يزداد الطين جمالاً ، بعد أن يتحول من وحل إلي رماد جاف شفاف . وربما يؤيد هذا .. الرأي القائل بأن آدم الرجل / الرجال .. ومع مرور العصور والدهور .. يزدادون إشراقاً وجمالاً وشفافية . ذلك لأن الطين الذي خُلِق / خُلِقوا منه .. ومع مرور الشهور والسنين عليه ، يتحول من طين إلي طمي إلي رماد جاف طاهر ونظيف وشفيف وعفيف بكْر ، شُرِعَ منه التيمم وعليه السجود .

ثم إن الحصي .. تُحبُ المرأة الحامل أن تضعه تحت لسانها . كي تكسر ما ينتابها من سُلْطة الوَحَم . كما أنهم يضعون " قلاقيل الطمى " فى الترمس كي تمتص منه المرارة .

هذا .. فى الوقت الذي تزداد فيه بنات حواء . على مر العصور . قُبحاً ودمامة ، وذلك لأن أمهن حواء خُلِقَتْ من شيء حي . من اللحم . واللحم كما نرى .. تُصيبه الأيام .. بالقُبح والعفن والعطن !

❖❖❖

كل شئ يتفزر أنوثة ورقة ورهافة ..

امتلأت محلات العطور بشتي أنواع وأصناف البارفانات والعطور الجاذبة للفراشات . صارت ظاهرة : اختفاء صالونات الحلاقة ! فأصداغ الرجال ملساء . وشعورهم يفضلونها مُرسلة ومهدلة على أكتافهم وظهورهم .

تظهر حبَّات عيونهم .. وكأنها حبَّات عنب بناتي . من بين تلك الخُصَل الناعمة .

تجلَّت هذه الرقة والرهافة عند هؤلاء " الرجال" .. فى شكل المشي وطريقة الكلام وطريقة المصافحة بالأيدي . فيمد " الرجل " منهم ذراعه على طوله .. فارداً أطرافه التي طالت واستطالت بالأظافر المدببة والملونة . فيضع أطراف أنامله على بدايات أصابع الآخر . محافظاً على وجود مسافة بينهما .. قدر امتداد الذراعين .

وإذا حاول أحد - ممن يصافحونه - الاقتراب منه قليلاً . كأن يريد أن يُقبِّله أو يوشوشه - علي اعتبار أنه يصافح رجلاً مثله - تجده يتثني ويتقصَّع صائحاً " يـاي " .. يقولها وهو يتراجع إلي الخلف !

شكل الضحكة .. طويلة وناعمة وممتدة ، مع دفع خصلات الشعر المتهدل على القورة - بين حين وآخر - ومع كل ضحكة أيضاً . مع محاولات ترطيب الشفاه ولحسها باللسان.. وباستمرار .. بعد كل كلمة أو كلمتين .

وكان لشيوع سير النساء فى الشوارع والحارات وعلى النواصي ، وركوبهن الباصات والدراجات والسيارات ، راكبة أوسائقة . بالعباءة أوالملاءة أوالماكسى أوالميكروجيب أو الاسترتش . كان لذلك .. الأثر الأكبر فى بخ رزاز وانتشار روائح الأنوثة . أنوثة أكثر نفاذية وأشد جذباً وأسراً واحتواءً . أمط فى الضحكة وأفتن فى الشكل ، أدق فى التقاطيع ، بريق عيون ولمعان أصداغ وهيجان شعور ورشاقة خصور ونصاعة أسنان . ودقة شفاه ..

وكانت المرأةُ إذا رأت فى المنام أن فرن خبيزها مُتَّقِد وَمُحمَر . تتمنى ألا تقوم من نومها ، وذلك لأن جارتها رأت ـ نفس الحلم ـ الليلة البارحة . وفى الصباح وجدت زوجها يصرخ .. " مالكَ يا زوجي ؟ " لقد اكتشفَ أن فحولته قد سُلِبَت منه !!

وكان الرجل إذا رأي فى المنام أنه يأكل فخذ خنزير.. يقوم وقد فقد ما يعتقد أنه علامة رجولته !

وحتى الآن .. لا يعرفون أن كائنات مختلفة . دنيئة .. وشريفة . لها مثل ما لهم . من أعضاء ذكورة !

❖❖❖

ارتفاعُ أصواتهن .. بكل أشكال الصوت وألوانه ودرجاته وسلالم موسيقاه وبصماته وطبقاته وبحاته وانخفاضاته وتموجاته وسرسعاته وسرسباته . فى رسم لوعة فراق أو تجسيد حُرقة غرام . أو نَزق جسد . أو التعبير عن نَدْهة جنس أو تشخيص أصوات المومسات . إلى تمثيل أصوات وأدوار الملِكات والأميرات والمناضلات والرائدات والسيدات الأُوَل .

تبالغُ الأنثى فى بَحّة صوتها . ثم تُتبعها بضحكة منغومة أوقل ملغومة .. بوتريات من شِغاف رحيق أنوثة ملكات جمال الكون . ضحكة ملغومة بديناميت من غُنج . وتأوُّهات قادرة على دغدغة أعصاب الرابضين فى خنادق المقاومة وحفر الجهاد .

كلمات ملساء فى نعومة الحيَّات ، تقرص وتغزغز فى رقائق ووريقات شغاف القلوب والمُهج والعواطف الملتهبة . مغموسة فى موسيقى صاخبة وآسرة وصارخة . تتأوَّد بها فتيات بيضاوات / صفراوات / شقراوات / خضراوات / حمراوات / خمريَّات / بنفسيجيات . مشفوطات بسرنجات الرشاقة والوسامة والرقة والسمسمة والنمنمة ، تأود خفيف .. شفيف .. رهيف ...عنيف !

أو منفوخات بأنابيب من القشدة أو معاجين السيلكون ، ألوانهن فى ألوان التمر والشمع والخمر وماء التفاح وقشر الليمون الأخضر ..أوالمُشرَّب بصفار . أو فى ألوان الفراولة الحمراء المُشَّربة ببقع البياض . والتوت البمبى على أبيض .

رؤيتهن ..ومن أول وهلة – تُبطِل نظرية اللحم الآيل للدمامة والنتانة . وتؤكد أن قائل هذا الرأي . أو صاحب تلك النظرية .. أعمي . أو ليس عنده نظر .

فى رقة أوراق البنفسج . وتَوحُّش أشواك الأنوثة ، مُسبلات العيون . فاغرات الأفواه . سائلات اللعاب هائجات الشعر والشعور .

❖❖❖

شاعت بين هؤلاء " الرجال " .. عادة أن يضع الواحد منهم التصاوير العارية على شاشة المحمول . مع أنه يعلم أنه ـ فقط ـ يحرق أعصابه . ويكونُ في ذلك مثل قطار جامح ، لا يجد قضبانٍ ينطلق عليها ، أو قُلْ .. مثل ثور أو فحل معلوف بالفول والرَّدة والكُسب ، وقد ربطوه بجنزير فى شجرة كافور عتيقة . ثم مرَّروا أمامه بقرة شعنونة رعنونة .. فنط نطة . فوقع . فانكسرت رُكبته وانبطشت أنفه !

وقد تجد على جانب من تلك التصاوير .. صوراً جانبية . لرجال منبطحون . أوتكون معاصمهم مُكبَّلة إلي ظهورهم ..وآخرون وجوههم إلي الحائط .

انخرط النساء فى طلب الخُلع والتطليق من " ظلال الحوائط " .. وكانت المرأة لا تستحي أن تقول فى حيثيَّات مطلبها – بأن هذا المحسوب عليَّ رجلاً - لو أنه وُضِعَ معي داخل قميص نومي . ما تحركت في جسده نبضة رغبة .. أو نزوة اشتهاء .!!

المنقلب الرابع

مشاهدات النفق الأخضر

صار بيني وبين المائع الرقيع مسافة طويلة ، قرص الشمس فى مُغالبة مستمرة مع جاذبية الأرض . يجاهد كي ينخلع من طوقها ، دورالقرية ومضاربها..اختفت وراء التشابك الشجري المخيف .. الذي يُشكّل نفقاً طويلا ، ينتهي عند مرمي البصر . بشكله المخروطي المدبب والحاد والممتد والمتجدد .. كلما مشيت . والذي يبدو وكأنه منظار مغروس في بطن الأفق !

كنتُ قد رأيتُ مغارة على هيئته تحت الجبل الشرقى . يُقال إن الجن هو الذي حفرها أيام كان للإنسان سلطان علي تسخيره . إذ كان يحفر ويحرث ويصطاد !

تنظر من فوهتها فتري بصيصاً من الضوء ..هنااااك .. قادماً من نهايتها . كأنه ثقب مُضيء في بطن الظلام . يقولون بأن داخلها مفقود والخارج منها مولود . وأنها تمتد حتي الخليج المالح .

قابلني رجل كان يركب حمارته ، والبقرة تتحنجل خلفه وحواليه ، مثل شعنونة تشتعل فى حناياها خلايا الشهوة ، بادرني الرجل بالسلام . ثم قال : ادعُ الله أن يَجبُر خاطر هذه البقرة . ونأكل من خرجها السرسوب والرايب . فقد كنتُ بها عند الفحل ، ركبها مرتين قبل ذلك . لكنها لم تلتقط منه نطفة . أو أنها التقطت منه وعجز عن أن يُطفِئها . أو أنه أطفأها لكنه لم يُخصِّبها ، وإن كنتُ أشكُ فى أن يكون قد انتصب عليها أصلا . رغم سخونتها ورعونتها . وكان صاحبه يدفعه إليها دفعا ، ويهرش

له فى بطنه ، ثم تمتد أصابعه لتداعب منطقة الإحليل . فلم يتحفز ولم يقفز أو ينط !

الولد ابن صاحب الفحل .. كان قد شاهد فى الوسعاية القريبة . كلباً مشتبكاً مع قطة ، فجري نحوهما ، وراح يقذفهما بالطوب ، فاندفعت القطة .. بلا خجل فى اتجاه . بينما اندفع الكلب فى الاتجاه المعاكس . كل منهما كان يحاول فك الكلابات من الآخر!

اكتشفنا أن للقطط ـ هي الأخري – عضلات قابضة !!

وقعت عينا الفحل على المنظر . فاكتفي بأن راح يتشمم فى تلك الكائنات الدنيا .

ثم قال الرجل صاحب البقرة : وها أنذا فى طريقي للبحث عن فحل آخر فى بلد مجاور .

ثم انصرف . وبعد أن ابتعد .. دعوتُ له بظهر الغيب .

❖❖❖

علي شاطئ النهر ، وعلي جانبي الطريق . أشجار تضرب جذورها فى طيّات التاريخ . كافور وصفصاف وبلوط وتوت ونبق وأشجار الحور الضخمة . وأشجار البلسان الجميلة بثمارها الشهيّة . وكذلك أشجار الجميز . الجميز! تلك الأشجار التى يدعو موقفها للقلق والخوف . على مستقبل نوع طيب .. فى طريقه للانقراض . فالباحث علي شواطئ الترع وأمام الجوامع وبين المقابر. لايرى من الجميز إلا كل عجوز . شجرة أو شجرتين فى زمام كل قرية . من غرس الأجداد . فلم يعد أحدٌ من الناس يُكلفُ خاطره ..ويقطع عوداً فى طول ذراعه . من اى شجرة .ثم يقوم بدفنه فى الطين . كى ينبت ويتطور ويتحور.. من برعم إلىفرع إلى جميزة يافعة.. إلى تاريخ طويل . على الأقل يضمن الفلاحون لصغارهم ..علاجاً دائماً بالمجان . من لبن

مُر . ينزُّ فور جرح لحائها الخشن . وذلك لما يطفح على جلودهم من قُوب . ناتج عن قلة الطعام وشُح الإدام .

تلك الشجرة .. ذات الثمرة الحلوة من اللبن العلقم !

ومن خلال الأغصان المتشابكة . ترى قرص الشمس الطالع من الأرض . وهو يتماس مع حافة الوادي . أبي - حتحوت الأكبر - قال مرة : إذا سافرت يا ولدي .. فخذ معك رفيقين .. غراباً وماء ! فقلت له : الماء ليروي ظمئي .فلِمَ الغراب ؟ فقال : لكي يواري سوءتك فى التراب إذا مِتَ فى الغربة . فقلتُ فى نفسي : الماءُ عن يميني فى النهر ، أما الغراب فقد يكون هو الذي رأيته فى المنام ، جالساً عند أخر النفق الشجرى .. هناك في انتظاري .

قطعتُ مسافة مئة شجرة تقريباً . دخلتُ فى تخوم قرية . كُنَّا نركبُ لها الحمير مسيرة يوم من مضارب قريتنا .

قابلني رجل من أهلها ، قال : دعني أصطحبكُ يا مولانا . فربما كنتُ أنا الغراب . ثم أردَفَ فى إلحاح : سأكونُ لوجهكَ نعم المُطيع . ولظهركَ نعم المُعين . فقلت له : لا أجدُ فيكَ سِمات من أُمرتُ باتخاذه رفيقا . فقد رأيته فى المنام وهو الآن فى انتظاري هناك .. عند آخر النفق .

كانت الشمس فى ارتفاع نخلة ، وهي تَخُطُ طريقها المقدَّس فى سقف الخيمة الزرقاء.

" يُقطَعُ عمل ابن آدم إلا من ثلاث ...،...، وولد صالح يدعو له "

اللهم ارحم أبي - حتحوت الأكبر - أكلَ الدودُ منه كل شيْء - إلا نخوته وفروسيته .

مئات الجزوع العتيقة تجرى عن يميني وعن شمالي . داخل النفق الذي لا يزال ممتدا . قابلتني امرأة جميلة المنظر ، ليست كنساء القرى عندنا ، أكَلَ الهَمُ نصف النضارة فى وجوههن ، بينما هضم

نصفها الآخر كثرة الإجهاض . فقلتُ : سبحان الله . فقالت : سبَّحتَ الخالق فى جمال المخلوق .

- من أنتِ ؟

لكنها لم ترد

- رب اجعل لي من حق اليقين ما يحولُ بينى وبين معصيتك .

- من أنتِ ؟

ولم ترد .

- ماذا تريدين مني يا فتنة الجنة ومطيَّة النار ؟

....كما وهبتني إياه يارب .. ليلة أن ذهبتُ لقضاء حاجة لي ، وحينما عدتُ إلى خلوتي ، وجدتُ الجميلة ..زوجة ....وقد هيأها الشيطان لي . فاستدرتُ لكى أفرُ هارباً ، لكنها تمكنت من شق قفطاني من دُبُر . ويا للأسف .. لم أجد الرجل الرشيد .. لا من أهلي ولا من أهلها . لكي يشهد الحق ، فكان ما كان لي فى البادية ، حول شجرة النبق العتيقة .

....اللهم اغفر الآثام وأحسن الختام . رب اجعل لي من حق اليقين ما يثبِّتني أمام المحن ، ونسألك البرهان .

وفي هذه الأثناء . َصمَّ اذني طنينٌ طيَّار يموج فوق سقف النفق الشجري المتشابك . وإذا بجيش من النحل يحط على شمع المرأة الرائع ! فوَقَعَتْ على الأرض ، وراحت تتمرغ فى التراب .

وكأنهم كانوا فى حالة تأهب ، انشقت عنهم الأرض ، جماعة من الفرسان . راحوا يخصفون فروع الأشجار . ويهشّون بها على التشكيلات الطنَّانة التي استماتت على الجسد الفاتن .

الأرجل الخلفية للخيول .. كلبَشت عليها كلاّبات . الكلاّبات موصول بها جنزير ، يمسك به فريق من مصارعي الثيران . وكلما

كانت الخيول تَهُبُ أو تَشب أوْ تنط لنجدة المرأة ، كان المصارعون يشدُّونها إلى الوراء . فتتكفئ الجيادُ على الأرض ، فيضغط الفرسان على بطونها . يحثونها بأرجلهم . لكن دون فائدة . فيرخي المصارعون الجنزير قليلا ، فتنهض الجياد من كبوتها . وتَهُبُ واقفة . فيحثها الفرسان ، فيقوم المصارعون بجذب الجنزير. فتتكفئ الخيول على أسنانها .. وتنغرس أنوفها فى التراب وتتكسر الرُكَب .

الأولاد الصغار كانوا ينظرون إلى المشهد وهم يضعون أصابعهم فى أفواههم !

ومن بين خُصلات رؤوس الأشجار . تبث الشمس خيوطاً من نار سائلة . ماء النهر يترقرق على يمين النفق الشجري . الذي لا يريد أن ينتهي .

أسرعتُ خطواتي لكي أُعوِّضُ ما فاتني من وقت . مرة مع المائع الرقيع ، ومرة مع المرأة المُستباحة والخيل المُجهدة .

الأشجار تجري نحو الوراء . والطريق ينطوي خلفى ، وكأني أركبُ قطاراً أو سيارة ، ولستُ أمشي على قدمين !

ومن بعيد رأيته .. كان مُقرفصاً على جُرف الشاطئ . يجذبُ إليه السنارة . كأنه خبير فى استخراج المجاهيل . السمكة المرشوقة فى الخُطاف تُفرفر وتتلعبط فى الهواء . تكون على وشك أن تتحرر من الشكيمة لتقفز فى الماء ، لكن سرعان ما يُحكِمُ عليها أصابعه .

وحينما وقعت عيناه عليَّ . سابت أنامله عن جسدها ، فانزلقت إلى مسقط رأسها ، هرول الغلام نحوي . إنه هو.. الذي رأيته فى المنام وأُمرتُ باتخاذه رفيقا .

ـ أهو أنت ؟

= نعم أنا الغراب !

نظرتُ إليه فى استغراب فقال :

= دع ما في باطنك فى باطنك ، واترك ما في نفسي فى نفسى .
ثم تقدم مني ، فحمل عنى مخلاة الزاد . وكانت قربة الماء لا تزال على كاهلي . سرنا .. فج ضوء الشمس من فوهة النفق الأخضر . عند آخر الظلال الكاسية .

كُنَّا عند عقدة النهرين . وقت الصلاة دخل علينا ، علي طول الشاطئ تجد عشرات المصليات التى أقامها الفلاحون .. بُغية أمرين : رفع الجنابة .. وعادة ما تكون قبل الشروق . ثم إقامة الصلوات على هامش أعمالهم فى فلاحة الأرض .

توضأنا ، ثم أمَمْتُه ، فصلينا فرضين.. جمعاً وقصرا . ولما انتهينا ، أمرته بتجهيز الطعام . فتح المخلاة . فأخرج قطعة الجبن القديم ، ثم راح يُخرِّطُ عليها أعواد الشبت والبقدونس . أحضرتُ البقدونس معي . فقد رأيتُ فى المنام أني أتناوله فى طعامي ، جاءني الهاتف بعدها .. قال لي : إن تناولك للبقدونس .. يعني أنك مهمومٌ بقضايا كبري ...!!

وكنتُ قد أحدثتُ شيئاً من الفُساء . وأنا لا أحب أن أتناول طعاماً أو أجامع امرأتي . أو أنام أو أشرع فى سفر وأنا على غير وضوء . فقلتُ للغلام : سأجددُ وضوئي حتي تنتهي من تجهيز الأكل . ثم نزلتُ إلي المنحدر. على الدَّرَج المصنوع من الصخور . ورحتُ أتوضأ ..

يا بحر ...

ربي وربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، ومن شر ما يدبُ فى قاعك ، وشر ما يسبحُ فى مائك . رب أنزلني منزل صدق وأخرجني مخرج صدق . رب اجعل لي من عزوتي رجالاً .. لهم نفوسُ الكتاكيت وهامات النخيل .

اللهم لا تبتر منا النخوة ، ولا تقطع من أصلابنا الفحولة . فأنتَ يارب الناس .. أعطيتَ الذكورة للكلاب والبغال والحمير !

رحتُ أتهادي ..أتهادي .. ماذا يحدث لي ؟ أتهادي.. أهبط ..أغطس

وقبل أن يصل الماء إلي مستوي عيني ..كان آخر شئ رأيته .. حينما كان الغلام يمسك بالسكين . ويُخرِّطُ العيدان الخضراء . فيما كانت عيناه مرشوقتين فى وجهي .. الذي يغربُ تحت شفرة الماء ...شيئاً .. فشيئاً ...فشيئا ...فشئ أء ...أء ...

❖❖❖

المنقلب الخامس

رحلة علي ماء الشمس

مَرَجَ البحرين يلتقيان ، يصطفقان ، يُصفّقان ، ليس بينهما برزخ ..فهما يبغيان ، يتداخلان ، يتوحدان . الأعلى يهيلُ جبالهُ على الأوطى . فيفرُ المركوب من تحت الراكب . مُتدحرجاً ..صاعداً حتي يركب الشاطئ . فيرده الشاطئ - فى انكماشة لعضلات البحر - ليصطدما ، يُصفّقا ، يصطفقا . في خضم موّار فوّار غدّار ضاغط رافع خافض أرعن . أمواج تركب أمواجاً ، تضغطني .. تكاد تسحقني ، اكتشفتُ أن جبهتي رأس حربة .. ولها اندفاع ذاتي ، وقدرة على الاختراق والنفاذ ، وكأن لي عشرات الزعانف والدوافع والروافع وقرون الاستشعار والخياشيم ، أُحلّقُ بإمكانات الكائن البحري ، بين طبقات وطيات الأرضين والماء .

الحيتان هنا كالحصي .. هائجة .. مائجة ..رائحة وغادية . تسري .. تتلوي ..تهدر ..تفلت ..تنط ..تغوص ..تقب ..تغطس ..تُرسِلُ من عيونها ومن قشورها أشعة قاسية النفاذ ، يجذبها هدير الشلالات .. من طول البحر وعرضه ، القراميط والبلطي والكابوريا والدينيس والقاروص والشبوط ، جميعها يتلاطم فى جُبن وهلع ، تفر من أشداق مفتوحة كأنها أفواه مغارات . كل حوت يلقم منها بقدر اتساع شدقيه ، أو قل بقدر شراهته . فيهرب بعضها من بين قواطعه مُنسرباً نحو معدته ثم أمعائه . فتلسعها عصارته الكاوية . فلا تجد إلا أن تهرب مُنفلتة إلي فتحة الإخراج . فتتلقفها كائنات أخري ، قد تكون أضخم حجماً .. لكنها أكثر دناءة .

الخفافيش تأكل الذباب ، والصراصير تلملم النمل . و...

الهيجان يُعكّر اللجاج ، اصطفت الحيتان . سارت فى سرب واحد ، بينما أنا متوقفٌ.. أترقبها ..أتفحصها .. أرصد منها ذلك الحوت الأعور ذا القرنين . الموصوف فى كتاب " الوصايا المأمولة فى علاج أمراض الفحولة " . كما جاء عن فوائده فصل فى موسوعة "

الحلقات الموصولة فى أمراض الرجولة " . وقد اتفقت الموسوعتان علي أن مقداراً من مسحوق قرنيه - بعد أن يجف ويُطحن ويُسحَق - ثم يُخلط علي زيت كبده ..فهذا كفيل بأن يجعل ذيل الكلب مفروداً . كما يطيلُ ذيل الجدي ، وينبتُ من جديد .. ذيل البرص .

وحينما جاء آخر حوت . وكان بحذائي .. توقف ، ثم وطأ لي ظهره ، فهممتُ بركوب متنه . بالفطرة التي يركب بها الناس مطاياهم . لكن الحوت أخذ فى الدوران حول نفسه ، كان كأنه الحلزون ، أو الدوامة التى تدور حول نفسها . بالسرعة المخبولة التى نراها عليها . .حين يكون لها حركة دائرية حول نفسها .. وأخري زجزاجية مُتنقلة ..من موضع إلي موضع .

هكذا كان الحوت حين كنت أشرع فى ركوبه .

ومن فرط طوله وضخامته يبدو كأنه بُوصلة ضخمة تشير إلى قِبْلتى ووجْهتى . أهُمُ بالركوب . فيدور بعنف وغيظ وتمرد . فطنتُ لرغبته . هو يريد أن يكون ركوبي بالمقلوب . وجهي نحو الوراء وظهري إلي الإمام !

كنتُ وأنا علي البر أحرص على اقتناء المكابح والمهاميز ، أضعها تحت عمامتي ، وقاية من رعونة حمار شموس أو حصان أهوج، فأقوم بوخز الركوبة فى ظهرها إذا جنحت أوجمحت ، اكتشفتُ أن ليس معي كابح ولا مهماز. عليَّ أن أطيع أوامر وإشارات الحوت . فأنا أعزل .

ربما يكون المُنخاز قد سقط مني علي قش المُصلَّي ، أوهما أسقطاه مني لعلمهما بطبيعة المطيَّة التي سأركبها ، وربما لأنني مسافرٌ إلي عوالم لا تنفع معها كوابح ولامهاميز .

ركبتُ المتن المستدير.. الضخم .. الأبيض .. من ضخامته وترامي أبعاده .. لا تستطيع رؤية رأسه .. حين تركبه ووجهك للأمام . ولا مشاهدة مؤخرته إذا كان وجهك نحو الخلف .. أخذني وفَرَّ.

خرجنا من عقدة البحرين . كاد ينزلق إلي الخليج المؤدي إلي المحيط الأسفل . لكن البوغاز انغلق فى وجهه ، أيقنتُ أن ذلك نذير شؤم ، إذ يستقر في مخزوني .. أن انغلاق البوغاز فى وجه باخرة أو وجه غواصة.. يعني تعثُّر الرحلة .

طفا الحوت علي السطح ، خرج من الخضم الهائج . زحف على بطنه . علي أوائل الحصيرة الصفراء اللامعة . التي يصنعها حر بؤونة في الرمال . بحر لجى من الذهب المُسال . أمامكَ تراهُ سراباً ، وخلفكَ تجده ترابا !

في شكل دبابيس من اللهب ، تشكشك سطح الأرض . خيوط من نار. مهتزة ومتلاحمة ومتتابعة . كانت جدتى . إذا سرنا على أسفلت أو رمال ـ وكنا فى بؤونة ـ تقول إنها

" غنم ابليس" !

راح الحوت ينزلق على الجليد الأصفر الملتهب والمنصهر ، والمُوحي بشكل ساحات جهنم . الحوت يتلوي كأنه ثعبان ، الا يكتوى بطنه بهذا الجمر ؟

راح يعبر السهول والوديان متجهاً صوب الجنوب ، كنتُ ألمح تناطح أمواج الخليج الهادرعن شمالي . الأمواج كانت تشبُ فى الفضاء . يزيدها هياجاً ذلك الزعيق المتواصل للبوارج والغواصات ، حينما كانت تهبط عليها الطائرات . كانت رؤوس الأمواج تشرئب مخترقة الفضاء . كأنها تريد أن تطفئ الشمس !

رأيت علي الشاطئ امرأة .. عريضة المنكبين . طويلة الساقين . وارمة النهدين ، سمينة الوركين . مُتكوِّرةُ الردفين . كانت ترقص رقصة غجرية شَبِقة . تحيطها نغمات صاخبة . لموسيقى تكاد تنطق بحِدة . لِلحنٍ طالما طربنا له .. ونحِنُّ لسماعه :

" يا ابا عبد الفتاح .. صاح العنب صاح .. نادي ع الناطور.. يعطينا

كانت الغجرية تُوقّعُ فى غنج . بأقدامها وسيقانها على حدة النغمات ، وبعد أن هدَّها عنف الرقص . مددت جسدها . فكان بطول الشاطئ وكأن الشاطئ تشكّلَ على هيئتها . وبعد أن نامت خرج من الماء خنزير أبيض . هجم عليها ، برك فوقها . وانهمك يُضاجعها . سألتُ الحوت : ما هذا ؟ .. فأشاحَ برأسه لأعلي أكثر من مرة . فى محاولة لإسكاتي ، ثم واصل انزلاقاته على قشرة الرمال المصهورة .

ماذا يجرى لى . ما هذا التنميل . أشعرُ بشىء غريب .. يحدث بين فخذىَّ ؟!

ياإلهى !

لم تفتتن زوجتى بجمال وركيها . كما أنها لم ترَ فى المنام أن فرن خبيزها يتّقِد !!

سلّم يارب سلّم ..

لا أرى أمامى ذئبٌ ولاعِرسة !

أينما زحفنا كانت المرأة بطول الشاطئ . والخنزير يُضاجعها . أنظر لنفسى بحسرة . ورأسى تقترب من صدرى !!

اقتربتُ من نهاية الخليج ، وقبل أن نصل إلي منعطف الركن الخالي ، وإذا برجال ينسلون من جهات شتي ، من جُرف البحر . ومن كهوف الصحراء . راحوا يصرخون بأعلي أصواتهم ، لا ينادون علي أحد ، ولا هم يستغيثون بأحد ، ثم راحوا يلطمون . كأنه نذرٌعليهم أن يُقيموا مندبة وملطمة فى هذا المكان . وكل من ينضمُ إليهم يصرخ مثلهم .. دون أن يسأل .. علامَ يلطمون ؟

ثم تحوَّلَ الحوتُ فجأة ، وفي انكسارةٍ حادة ..كِدتُ انقلب من

حدتها ، راح يخترق الحدود والسدود . يزيح من أمامه الأسلاك الشائكة والفاصلة بين المقاطعات والمحميَّات .

وفي استدارة أخرى أكثر حدة – اتجه ناحية الشمال ، زغللة بحر الشمس المنصهرة تترقرق علي كثبان الرمال . عن شمالي جبال من أمواج مخروطية في لون الشفق ، كانت تخترق بطن الغلاق الأزرق، يطالنا منها طرطشات .

وإذا بفارس ينخز جواده بهمة .. كان الحصان يرمح وراء الخنزير الأبيض !!

- رأسى تميلُ إلى صدرى أكثر !

الحصان يرمح والخنزير يهرع أمامه . الفارس يُشهر سيفه فى الهواء ، يسابق الريح وراء الخنزير الهارب . كاد الفارس يُجهزُ عليه .. لكن !

النجس.. كيف عرف نقطة الضعف ؟

لقد تداخل فى محميَّةٍ لحمام الحمىَ !!

اتخذها درعاً يحتمى بها ...

توقف الفارس علي بابها فى انتظار خروجه !

هل يهجمُ عليه .. فى قلب المحميَّة..وتكون مجزرة.. بين تلك الكائنات الرقيقة .. ذات الريش الأبيض ؟

واصلَ الرحَّالُ انزلاقاته متجهاً إلي أعلي .. نحو الشمال . وبهذا يكون قد طوَّقَ الخرزة المُقدسة .

وعند أقصي **الشمال** .. انزلق بى داخلاً إلى رحاب البحر الميت !!

❖❖❖

المنقلب السادس

البراهيــــن

❖ فى المخاطرة جزء من النجاة ..

غشينا البحر المُسجَّي !!

لماذا دخلتَ أيها الرحَّال إلي ذلك الموات ؟

هل من البحر الميت تتوقع أن تنبعث حياة ؟

على عتبات شُطآنه .. زكمتنا رائحة التوابيت . وعَطَن المقابر الجماعية والفردية . فلا ثعبان يتلوي . ولا قاروص ينسرب . ولا قرموط يضرب شقلبان من تحت الماء .. إلي فوق السطح ثم يغطس .

الحوت كأنه يشق لجة من الماء المُوحِل . أوالزيت ثقيل القوام . والغريب أن ذلك لم يُشكِّل له أدني مقاومة تعوق سَبَحاته واختراقاته.

وصلنا إلي منطقة من التوابيت وساحات للمومياوات وأهرامات كثيرة ، منها على هيئة المنشور ومنها المُدرَّج .

هوائيات استشعار الحوت تتفادي كل هذه المجسَّمات والمجسَّدات . كانت تنبعث منه تقاطرات سريعة من طرقعات ضوئية خاصة به . أو هي موجات فوق الصوتية بالنسبة لي ، لكنني كنتُ أسمعها وأتواصل معها ، تصطدم تلك الطرقعات بهذه الأجسام ، وفي أقل من ثانية تكون قد ارتدَّت إليه محذرةً إياه ..انتبه : أمامك تابوت / مقبرة / تبَّة / هرم ..

الحوت يخترق البحر اللازج .. القاتم ، وكأن له سونار يكشف

له المسار الغامض !

الوسط هنا جدب وقفر وفقر .

حمدتُ الله أن الحوت كان قد أكل وجبة دسمة قبل أن يدخل بي إلي هذا الجدب . فقد التهم حوتيّات صغيرة وقشريّات وسلاحف بحرية . ورنجة وفُقْمة .

وجدتُ أمامي باباً مفتوحاً علي شبه أفق من شفق . تناهي إلي سمعي صوت كأنه الرعد .. يقول . وكان الخطاب مُوجَّه إلي الحوت:

" اهبط إلي هنا ...ليري ما لابد أن يراه "

فانزلق الرحَّال ، غرقنا فى ضوء أحمر محروق ، به عروق متداخلة من أضواء خضراء وصفراء . صالات ودهاليز ومكاتب ومتاحف وغرف وأجنحة ومعامل ومختبرات . رحنا نسبحُ فى الأضواء المختلطة . كل جناح مكتوب عليه المصطلح الدال على طبيعة مهمته ومحتواه . ونوع العمل به ، واختصاصاته . تكشَّفت لِيَ الأسرار والبراهين . طُفتُ على معامل كثيرة . كان منها :

الأنثروبولجي :

مكاشفة أولي :

" في البدء كان الجين "

عبارة قابلتني على واجهة الحائط المُقابل .. داخل المعمل .

علي الحائط الشرقي .. كانت عبارة " جينٌ من ثلج "

بينما على الحائط الغربي مكتوب " جين من نار "

جين من نار. نيرانه ..ألسنتها شقيَّة وطويلة الذراع ، تنزع إلي الرقص فى الفراغ . والسير على الحبال . وتسلق الجبال .

أما الجين الذي هو من ثلج . فتجد بللوراته طيِّبة ووديعة وداجنة . تميلُ إلي الذوبان فى اللاشىء .. أوالتجمد فى الذات !

ولم يكن " جام " .. يحمل جبلّة " خام " ،

ولا " فاعيل" .. حامل لجينات "خاميل" .

ولا كل منهما حامل لجينات أبيهم الأعلي .

كان "جام" .. وهو طفل رضيع.. يظل يصرخ ويصرخ . ولا تهدأ نفسه حتى يُخرِجوا كل الأطفال الرُضَّع .. الموجودين فى الدار !

بعدها يهدأ ويسكن ويستقر. ثم يلتهم ثدى أمه / مُرضِعته !

أما "خام" .. فلم يكن يُقبلُ على ثدى أمه / مرضعته . إلا بعد أن يبحثوا له عن رضيع من بيوت القرية .. يُشاركه.. إن لم يكن فى البيت رُضَّع .

فما كان إلا أن أطلقوا عليه - بعد أن شَبَّ وكبُرَ- ألقاباً غريبة مثل : العشوائى .. الهلهلى .. البدوى .. الغنَّام .. الجمَّال .. الحمَّار.. الغبى .. الأهطل..العبيط..الأهبل..الدرويش..

❖❖❖

رحتُ أتجولُ فى أنحاء الجناح ، انزلقتُ إلي صالة طويلة . أدَّت بي إلي غرفة شبه مظلمة ، لولا الضوء الواهن .. المُنبعث من مومياوات فسفورية . بصعوبة أري أصابعى . وجدتنى محاصرٌ بين مومياء سوداء . ومومياء خضراء . كل واحدة من تلك المومياوات راحت تشدنى من ذراع . كأنهما فى مسابقة لانتزاع الذراعين . تجلَّت لعنة المومياء السوداء . حينما أخرجتْ سيلاً من انبعاثات ضوئية، سريعة ومتتابعة ومتتالية . اخترقت دماغى . فوقعتُ على الأرض ، فأسرع خبراء الجناح وأنقذوا رأسى . لفوا حولها شالاً أبيض ، فلما نشع منه الدم ..لفواعليه " كوفية " .. يسمونها "

دشداشة " بها أيقونات ومنقوشات فى شكل فصوص التوت الأحمر، لا تُبينُ شيئاً من المنظر الباعث على الاكتئاب المزمن !

ولما صَرختُ من وطأة الصداع .. طوّقوا رأسى بالعقال . وقيل أن هذا " الطوق" .. كان له الفضل فى عدم ذهاب العقل منى !

وقال رأى آخر..أنه هو الذى أعطى رأسى شيئاً كبيراً من التعقل.. وإلا.. لظللتُ أصرخ حتى أُجنُّ !!

وظهر رأى ثالث . يبدو أنه حاقد أومُغرض.. قال : هذا الطوق .. حول هذه الكُرة.هو الذى حدَّدَ وحجَّرَ وحجَّمَ أفقها .. بل أصابها بالضمور !!

كبيرُ الخبراء أصرَّ على أخذ العينات منى . وكان التقريرُ التالي :

القلب : طيب وخيالي وهوائي وسطحي ورومانسى ونمطي وغير متوازن فى عواطفه .

إذا فرح طار. وإذا حَزِنَ نتف ريشه بنفسه .

يَجبُن حين ينظر لقِمّة جبل ، ويخفِق قلبه إذا نظر لعمق بئر .

وله ارتباطات خاصة بما كان يسمى بالِقيَم والمُثل . وأيضاً بالإله . يتشعلق فى حبالها / فى حباله .. فإذا قيل له " بخ " سقط !

الدماغ : صلبة بمعني ناشفة ، وناشفة بمعني جافة . وجافة بمعنى أنها تفتقد لخاصية النمو . النمو بكل درجاته .. المرحلي والمُتدرِّج .. وبالتالي فهي متوقفة عن التَحَوُّر والتطور .

الدم : بارد مع أنه يعيش في بلاد حارة !!

ومن كثرة ما امتزجَ به من مُكوِّنات الفراخ البيضاء .. بهتت فيه كُرات الدم الحمراء . وخصوصاً المُكوِّنة أوالمُنشِّطة لهرمون " الإدرينالين " .. والمُسمَّي بهرمون النخوة !

البيولوجي :

مكاشفة ثانية :

الكيماوي :

صبغ أسمر + عرق من صبغ خمرى ، يُكوّنُ ويصنع شفقاً .. لبدايات ليل طويل يدعو للحزن والاكتئاب .

الحمضي :

٥ ٪ من D NA القرعيات

٥٠ ٪ من D NA - النّعاج

٢٥ ٪ من D NA المعيز

٥ ٪ من D NA الرجال

٥ ٪ من D NA القطط

٥ ٪ من D NA الأرانب

٥ ٪ من D NA السلاحف

---

١٠٠ ٪ من مكونات D NA لإنسان فاقد الأهليَّة ❖❖

السيكولوجي :

مكاشفة ثالثة :

يهوي تقليم أظافره بأسنانه ، وتقليع رموشه ، ولأن لديه وفرة فى الوقت . فهو يستهلك هذا الوقت فى " تقوير " الباذنجان .. و تقوير أنفه !!

يعشق لحم الغنم ولحم الغزلان . ونصف حياته فى حب الفرَاش !

لديه شغف شديد بتربية خِصْيتيه . يحبُ أن يرى هذا الكيس فى حجم كيس المعزة الوالدة !

يتحرش للمنظر المُثير . ولكن يمكن أن تنتهي عنده المغامرة .. إما بالاستمناء أو بالانتحار . كِبَر حجم راسه .مع صِغَر كتلة مُخه .. وَتَكلُس السبعة الاستيعابية عنده .. صنع لديه قصوراً فى مَلَكة الرؤية من القفا .. مثل بقية الناس !!

وعدم ثقته بنفسه .. أحدثت عنده عادة التبول اللاإرادي .

ينتهج مبدأ أدب القرود . وإذا غضب . فهو يغلي فى نفسه . ولا يفور علي غيره .

❖❖❖

❖❖ هذه النتائج .. ليست عشوائية ولا حقود ولا مُغرضة . ولكنها

مُحقّقة من واقع التحاليل .. وفعل الرسَّام الإلكتروني لمعامل ذلك البحر الميت .

المنقلب السابع

فى انتظار "لمح"

وُلِدتُ من البحر الميت !

خروجى منه حياً . أسقط نظرية .. أن البحر الميت لا تنبعث منه حياة أبداً .

زحف الرحَّال بى على الرمال التى لا تزال متوهجة . واصلَ انزلاقاته على جليد النار . دخل فى تخوم الوادى المقدس . صعد هضاب وانزلق بين ممرات . كان كأنه - يُسوِّى بالأرض - أويعيد دفن جماجم وخوَز والغام .. كانت لفظتها الرمال بفعل عوامل التعرية .

كما كان يمحو آثار جنازير دبابات وأقدام جنود !

اخترق الممر المالح . الواصل بين البحرين . ذلك الذى يقف مثل العقلة ..فى زورالشيطان!

الليلُ لا يريد أن يهبط . وشمس بؤونة لا تتحرك من فوق رأسى . قابلتنا حدائق وأهرامات وحقول فول وبرسيم وجرجير وفراولة . أنفار تجنى وآخرون يزرعون .

بقر يرعى وجاموس مُعلَّق فى السواقى . حمير تحمل نقلات سباخ .. ونساء يحملن جرارهن ويهبطن إلى النهر .

عبرنا شعبة النهر المبارك . الذى قيل أنه ينبع من الجنة !

" واحدٌ ممن لا يحبون حشر هذه الأمور بالميتافيزيقيات .. قال أنه ينبع من المقطم " ❖

الحوت يسبح وينزلق . كأننا فى مهرجان فارسى .. إغريقى . ظل فى سبحاته على البساط اللامع المتوهج . حتى اخترق وعبر شعبة النهرالثانية . وفجأة . هبَّتْ ريح سموم . عفرت وجه البسيطة .. بغبار أصفر جهنمى . يُقال أنه هابب من جبال برقة . لكن . سرعان ما فكَّت السماء تقطيبة وجهها . فهطلت أمطارغزيرة . غسلت الوجه الكالح . وصنعت السيول

❖ إشارة إلى الأديب فؤاد حجازى .. فى إحد أعماله .

نهراً عظيماً . راح الحوت يسبح فيه . لن يعد يسبح على الصفيح الساخن . تغير الطقس . نسمات باردة ومنعشة . هواء نقى . وسماء صافية .

انطفأ السطح المزغلل فى العيون . وهربت أغنام إبليس !

للحظات .. صمدت على صفحة السماء .. سحابة قاتمة كانت تتشكل فى هيئات مختلفة وغريبة . كائنات مُتقلبة الأطوار . آخر صورة أذكرها .. هى تلك التى شكّلها الريح . وكانت على هيئة كائن له جسد ثعلب ورأس إنسان . كان الجسد قد تبدد . وتشكّل على صورة حصيرة من كثبان رملية . فيما بقيت الرأس شاخصة تبحلق فى أهل الأرض .

وعند ملتقى النهر العظيم بالبحر .. هنا . مرج البحرين يلتقيان . لكن بينهما برزخ فهما لا يبغيان . لا يتداخلان ولا يتغشّيان . كل منهما - النهر والبحر - يعرف قدره ومقداره .

انسرب الحوت ليرمح بحذاء الشاطئ الأسمر الطويل . عَبَرَ المضيق . وعنده .. سَمعتُ أنيناً صاعداً من القاعِ . هبطنا . فوجدنا أسطولاً من سفن محروقة وغارقة .. تبكى بحرقة ! بحثتُ فى تجمعات الحيتان اللابدة فى غُرَفِها .. عن الحوت الأعور ذى القرنين . فلم نجده .

دخلنا فى أتون الخضم الهائج . المثلث الذى يُقال أنه مسكن الجن !! والمجاور لقارتين على هيئة جناحى وطواط أسود . كانت قد فتقته الطبيعة فى قلب زرقة المحيط . التى ثَبُتَ أن جينات أهلها ألسنة من مارج من نار !!

هيجان تحت اللجاج أشبه بنفخ ونفث وشرخ وصراخ . جاهد الحوت فى اجتياز الركام المتدافع . كان يُغالب اضطراب الأمواج . من هول السرعة لم استطع التدقيق فى وجوه الحيتان .

لماذا لم يتركنى الرحّال أركب كما يركب الناس مطاياهم ؟

جذبتنا الدوَّامة العارمة . فضربتُ الماء بكفى .. فاستطاع الحوت أن يفلت من خنقتها .

هنا ترتجف كل باخرة . وتفر كل طائرة .

غشينا لجّة . ألقت بنا إلى لَجاج وفِجاج .

قذفتنا إلى خضم أطم أعظم . صرخ الحوت . سمعتُ صرير باب يُفتح .. وقيل:

- ومن يكون ؟

فقال الحوت : هو ابن حتحوت .

قيل :

- وهل أخذ العهد ؟

قال الحوت : نعم

فقالوا :

- وما علامة عهده ؟

لم انتظر كى يرد عنى . فعاجلتُ بكشف ردائى . أشهدتهم اثر الشق فى ظهرى .

فهزُّوا رؤوسهم قائلين :

- وماذا يريد ابن حتحوت من الأرض الثانية ؟

قلت :

- أبحث عن حوت أعور ذى قرنين . موصوف فى الكتب بأنه .....

فقطعوا حديثى قائلين بأن قليلاً من مسحوق القرنين . على قليل من زيت الكبد . كفيل بأن يُطيلُ ذيل الجدى . ويفردُ ذيل الكلب . وينبتُ ذيل البرص .. أليس كذلك ؟

يا إلهى .. أهى لعنة كونيَّة .. حتى هنا أيضاً ؟

وهل لـ " رجالنا " نظير فى العوالم الأخرى .؟

ياويلى ..فقد صرتُ مثلهم ! منْ خَصَى الفحل ؟

ثم قالوا : لكن ..لا تتفاءل كثيراً .. فالحيتان العوراء . ذوات

القرون .. انقرضت منذ زمن طويل . اهبط إلى الأرض الثالثة . سمعنا أن حوتاً أعور .. له قرنان .. ظهر بها .

استدارة الرحَّال لكى يأخذ مساره .. صنعت دوَّامة . كادت تقلب البحر !

وبينما هو يستدير .. قفز رجل منهم . جاء ركوبه ورائى طبيعياً .. بحيث كان ظهره إلى ظهرى . ووجهه نحو مقدمة الحوت !

لماذا سمح له الحوت أن يركب هكذا ؟

وهو الذى يزمجر ويغضب ويصنع الدوَّامات العاتية . حينما أهمُّ بالركوب بفطرتى ؟

أقنعتُ نفسى قائلاً : دعهُ ينظر ويتابع حركة الحيتان من الأمام . وأتابعها أنا من الخلف . إذا سمح انكسار رأسى على صدرى بالرؤية. ثم سألته عن اسمه . فقال أن اسمه " جناح " !

صرخ الحوت . فسمعنا صرير باب يُفتح . فقال الحراس :

- ومن يَكون ؟

فقال لهم جناح : هو ابن حتحوت .

- وماذا يريد ابن حتحوت من الأرض الثالثة ؟

فقلتُ لهم : أبحثُ عن حوتٍ أعور ...

قاطعنى أحدهم قائلاً :

الموصوف لاشتعال الفحولة وإرجاع الرجولة .

يا ربى .. أهو علاج كونى ؟

...اهبط إلى الأرض الرابعة . سمعنا أن حوتاً أعور ذا قرنين .. ظهر بها ..

(سبحان الذى سخَّر لنا هذا ....)

كان الحوت يتفادى هضاب الأصداف وتلال المرجان . ينسرب

فى حركة زجزاجية مُرهِقة . دون صدام أو اصطدام . قرون استشعاره تُرسل نبضات كهربية ترتد إليه محذرة إياه .. الحركة بهلوانية مُتسلقة . لا يسير فى الخط المستقيم . ورغم سرعته الخارقة لجدران الزمان والمكان . كان يتكشف لى كل ما بين طيات وثنايا تلك السرعة الضوئية . فكنتُ أرى البساريا .. وهى تُلاعب الديدان والطحالب . ومخلوقات أخرى تتدحرج على رمال القاع . ومخلوقات رعناء تفر قبل أن تصلها أولى الموجات الهادرة .

وكان جناح لا يبخل أن يصفَ لى كل ما دقَّ ورقَّ .

دخلنا في عوالم لم نعهدها من قبل . لا فى رؤى المنام .. ولا فى أحلام الصحو .

عوالم تستعصى على خيالنا . بنفسجية وفوق البنفسجية . وحمراء وتحت الحمراء . وصفراء وفوق الصفراء .. ألوان الطيف تتراشق فى بعضها وتتعاكس على نفسها . مُكونة طبقات ودرجات أخرى من الوانات لأطياف مختلفة . فتصنع أفلاكاً وأقطاراً سحرية . تنعكس على حوائط ومسلات ورخام مُطعَّم ببقع حمراء وبيضاء . فتخلقُ جواً من المرايا . التى إذا عشنا بداخلها نغرق فى بحارها .. فَتُصيبنا الدهشة وربما الجنون !

وكذا أبراج عملاقة .. تتردد على حوائطها الأصوات وتتكسر . فتشعر كأنك فى عوالمَ الجن . بكل ألوانها وأطيافها وخيالاتها وأصدائها . بيوت وحدائق وناطحات سحاب وأشجار سامقة . وأخرى أضخم من أن يُحلِّق حول خصرها عشرة رجال متشابكى الأيدى . أسواق وتجار ومداخن مصانع . وأولاد يتشاجرون . وصغار يلعبون الكرة فى الشوارع . وأطباق استقبال لإرسال يشبه الإرسال التلفازى عندنا .. على الأرض . ومآتم ومقابر ومساجد وكنائس .

فى هذه الأثناء .. هلَّ علىَّ طيف الغلام .. كان لا يزال يُخرِّط

البقدونس !
أقبلتُ عليه . جلستُ أمامه على قش المُصلى تعجَّب :
- كيف أن جلبابك جاف .. ولم يبتل !
فنظرتُ إلى نفسى بارتياب . أمسكتُ الجلباب ورحت أعصره .
فكان الماءُ يشرّ من بين تلافيفه . فواصل قائلاً :
- ما تبحثُ عنه .. يحتاجُ إلى عصور ودهور . فى عمق المحيطات ..
وليس للحظة أو لحظتين .. تحت قشرة الماء .. فى نهرٍ هزيل .
وفى كل جعبة وجيب .. من جُعَب وجيوب البحار والمحيطات
.. وليس فى محيط واحد .
= ما يُحزننى يا بنى أن أغيب كل هذه السنين .. وحتى الآن لم
أعثر على شىء .
فنظرَ الغلامُ إلى تقاطيع وجهى باستغراب . ثم وضع ظهر كفه
على جبهتى المحنيَّة .. لكنه لم يشعر بآثار حُمَّى !
- بالكاد . انتهيتُ من استخراج الجُبن القريش والبقدونس من
الصرة ...
= ... لكن كيف استطعتَ أن تصبر كل هذا الزمن المُمِل .
وكيف عشتَ كل هذه السنين دون أن تأكل .. أو تموت ؟ إنها
هي .. نفس الصُرة بما فيها !!
- ولو فعلاً طالت السنون . لا نتظرتك حتى تعود . لكنه كان
مجرد غُطس في نهر .
= ... عوالم يا بنى .. سبحان الله المُسبَّحُ في لُجج البحار !
- أكنتَ تظن أن الحوت الأعور ذا القرنين في انتظارك .. تحت
قشرة هذا النهر .. ؟
= ... وكيفَ أنك لا زلتَ غلاماً . كما تركتك . شعرك لم
يشتعل وعودك مستقيم ؟
- انظر إلى هذا الرجل الصاعد على الدرج . والذي انتهى تواً من
غسل رجليه .. ألم يكن يمسح على أذنيه لحظة كنتَ تغطس ؟
= .... سبعُ أرضين يا ولدى . وما سَرَيْتُ إلا بين أربع منها فقط .

سبحان من أشركتْ به ألسنة الكفار .. ووحدتهُ ألسنة النار .. يا خفى الألطاف ...

بسم الله ..

لم أكن أشعر بالجوع .. لكنى مددتُ يدي مع الغلام إشفاقاً عليه . وَرُحنا نأكل .

ومع أول لقمة . صرخ الحوت . صرخة أفقتُ على إثرها .

كنتُ قد نسيتُ أين أكون . هززتُ رأسي . نفضتُ عينيَّ . تيقنتُ من وجود " جناح " ورائي . كان الحوت يُهدِّيءُ من سرعته .. حينما يشعر أن شيئاً ما قد استفز جناحاً .

وفى تهدئةٍ له . رأيتُ عجوزاً منهمكاً في مص حلمات ثدي امرأة غائرة العينان . مكرمشة الجلد . لها ضفائر شهباء . فقلت لجناح :

- وهل بهما خَبَل . أم وصل بهما شبق المراهقة المتأخرة لهذا الحد؟

= وماذا فى ذلك . طفل يرضع من ثدى أمه !!

ثم رأينا فريقين من الكهول يلعبون الكرة على جانب الطريق . فقلتُ له :

- لهذه الدرجة من الرفاهية والإقبال على الحياة يكون العجائز عندكم ؟

إن الشباب عندنا تموت أنفسهم .. قبل أجسامهم بستين سنة !

فقال جناح :

- وماذا فى هذا . مجموعة من صبية المدارس . يلعبون الكرة وهم يتسكعون إلى بيوتهم . بعد انتهاء يومهم المدرسي .

ثم انزلق بنا الحوت . توقف أمام جزيرة خضراء . فقام جناح بربطه إلى جذع شجرة على جُرف الجزيرة . دخلنا مسجداً كبيراً . يفوح منه عبق تاريخ عريق . فى صحن الجامع

خَلقٌ كثير . تتوزع على وجوههم بشاشات الأفراح .. والليالى الملاح . يتوسطهم شيوخ وقسيسون وحاخامات . كان المأذون قد فرغ من عقد القران لعروسين . على جانب من الحوائط قرأتُ الآية الكريمة :
(وأنه كان رجالٌ من الإنس .. يعوذون برجالٍ من الجن فزادوهم رهقا)
صرخ جناح . فسكت الجميع . فأنشدتُ قائلاً :
أما أنا .. فلا أطلبُ زهقاً ولا رهقاً .
عزيز قوم يسبحُ فى الكونِ مُنزَلِقاً .
يطلبُ الإكسيرَ لقوم فى الخَنَا ذلُّوا
أنُوفُهم من حشيش الأرض مُخضَّرة
وأسنانهم من طحن التبن مصفرَّة
ظهورهم مطايا . بناتهم سبايا . نساؤهم بغايا . فما انتفضوا . وما ملّوا .

فكان كبارُ القوم يهزُّون رؤوسهم فى إكبار وأسى لما أقول .
ثم تساءلوا عما أصاب الناس عندنا . فقلتُ :
ينام الرجل منهم " أويكون على سفر " وهو فى تمام فحولته .
ثم يقوم من نومه فلا يجد بين فخذيه ذكورة !

كاد الضحك أن يندلق من وجوههم . لكن الظاهر أنهم أدركوا قدسية المكان . فهذا مكان إن جاز فيه التبسم . فلا تصح فيه القهقهة .
أكَلَهُم الشك . فراحوا يتفرسون وجوه بعضهم . أصابتهم نوبة ضحك هستيرى . غلبتهم كاريكاتورية الموضوع . أوربما أحزنتهم درامية الحكاية . فكانت عيونهم تذرف الدموع وهم يضحكون .
فلا تعرف إن كانوا يضحكون أم يبكون .
عامَتْ فِشَشَهم على ماء قداسة المطرح .
ثم بعثهم الشك على التقليب فيمًا بين أفخاذهم . وتحسس

شواربهم . والشوك النافر فى صدورهم . ثم تقدم أحدهم وراح يتأمل فى وجهى . وتجرأ آخر .. ومدَّ يده ليفتش فيما بين فخذى .. نظر إليهم وهو يضحك !!

بادر القس قائلاً للشيخ :

- وما قولك فى ذلك يا مولانا ؟

فقال الشيخ :

- لكننا نريد أن نسمع منك أنت أولاً يا أبانا ..

فوضع القس يده على كتفى وراح يتجول بى .. فى الصحن الفسيح وقال :

- إنى سائِلُكَ فأجبنى . ولا تمسك عنى شيئاً .

فهززتُ رأسى موافقاً . فقال :

كبير الدار عندكم .. يجلس إلى ولده .. قبل أن يختلى بعروسه ؟

= نعم .. نعم . ويظل يكيلُ له التعاليم والمحاذير .

- عظيم .. عظيم . قل لى ..

كبيرالدار عندكم .. يجلس على باب غرفة ولده .. حين يكون فى خلوة مع عروسه / زوجته ؟

= نعم .. نعم . ومن أول لحظة .. تجده يأخذ فى النقر على الباب .

- عظيم جداً . قل لى :

كبير الدارعندكم يضع .. أذنه على أكرة باب غرفة نوم ولده حين اختلائه بعروسه / زوجته ؟ .

- لا .. فلهذه المهمة رجال آخرون وراء النوافذ والفتحات وعلى مسام الحوائط .

- عظيم - عظيم قل لى :

كبير الدار عندكم تأخذه الرعشة مما يحدث بالداخل حين اختلاء ولده بعروسه / زوجته ؟

= لا تأخذه الرعشة ولكنه يظل يتراوح بين قوله له .. ادلق الماء فى القعب / لاتدلق الماء فى القعب .. ادلق / لاتدلق ...

ثم عاد بى القس إليهم . وكان لايزال يضع يده كل كتفى ..

وهو يهز رأسه مردداً :

- وتلك هى المقدمات !

ثم قال الشيخ للحاخام :

- وما قولك فى هذا يا أخانا ؟

وضع الحاخام يده على كتفى . وسار بى متجولاً فى صحن الجامع وقال :

- إنى سائِلُكَ عن أمور فلا تكتم عنى شيئاً :

فهززت رأسى .. فقال :

الرجال عندكم .. يُفاجأ الواحد منهم بما يراه من عروسه ليلة أن يدخل بها . أم ... ؟

= نعم يكون هذا لأول مرة .. فهذا صندوق مغلق . وعندنا .. لا ينْفضُّ إلا بحقه .

- ها .. ها .. ها ... حقه !! ؟

قل لى :

الرجال عندكم .. يُعلِّقونَ صور الراقصات والمومسات حول فراشهم حين يختلى الوحد منهم بعروسه / زوجته / عشيقته ؟

= هم لم يعودوا يستخدمون تلك الصور الجامدة . يستعينون الآن بما يُعْرض على شاشات الفضائيات من تصاوير عارية . لِبُلطيِّات وسردينات وسنيورات وبرنسيسات مُعفرَتات فى كليبَّات غانجة .

- هذا عظيم - هذا عظيم . قل لى :

فإن لم يجدوا هذا على الشاشات ؟

= هى لا تخلوا .. وإذا حدث .. يستحضر الواحد منهم آخر منظر لصفحة ظهر أوصدر . أو منظر آخر سيقان تشربتها عيناه فى الشوارع .

- عظيم جداً .. لكن .. وكل هذا لم يحرك الساكن ؟

= كان هذا يُزلزلهم قبل أن تُقضم فحولتهم ..

ثم عاد بى إليهم :

نظر القس للحاخام والشيخ .. وقال :

- نخشى أن تنتقل إلينا تلك اللعنة ؟

فقال الحاخام :

= اطمئن يا أبانا - فتلك لعنة - لا تصيبُ سوى الأجناس البليدة فقط !!!

❖ ❖ ❖

خرجتُ من المسجد . مشيتُ على أرض الجزيرة . كانت فوَّاحة بروائح الحدائق والبساتين . قصدتُ البحر . جذبني جناح .. فركبنا الحوت . انْسَربَ بنا مثل طائرة نفَّاثه .. راح يسري بين الشِعاب والهضاب . دخلنا إلى مملكة من الممالك . صرَخَ الرحَّال . فُتِحَت الأبواب . ودقت الأجراس ونادى الحراس . قالوا :

- ومن هذا يا جناح ؟

= هذا رجل تحوم حوله الأباليس وتحرسه الملائكة .

- إذن عشِقته جنيَّه . فهبط لها في جوف قطة !

= بل هو رجل لا تقدرُ على إغوائه .. سوى حوريَّات الجنة ..

- إذن دُفِنَ جسده في الأرض الأولى . فهبطت روحه إلى هنا .

= هذا رجل .. حينما يموت .. سوف تسكن روحه في حواصل طيور خضر .

- وماذا يريدُ إذن يا جناح ؟

= ... ...

- مرحباً بالرجل الصالح . سليل المنبت الصالح . سنُرسلُ " لمحاً " بدلاً منه . ليبحثَ في باقي الأرضين السبع . فهو مُتخصصٌ في عوالم البحار والمحيطات .. العليا منها والسفلى . لا يهدأ ولا ينام له جفن . إلا إذا طافَ بحار ومحيطات الكون . السائلة والجامدة . سبعون مرة في اليوم والليلة .

خبير بأسرار الجيوب والمغارات .. في الأعماق والقيعان . يعلم أماكن تجمع الحيتان والكابوريا والبساريا والدلافين . لديه

الكفاءة لمخاطبة كل أحياء البحار. بلغاتها ورطاناتها وإشاراتها . بل ويأمرهم فيمتثلون !

وفى ظلام اللّجة . انْسربَ الحوت . شق المرجان . وانزلق فوق اللؤلؤ . وصلنا الى ربوة فى قاع المحيط . هدَّأ من سرعته . توقف .رأيتُ على سفح الربوة قطيعاً من الماعز .

كل معزة يسحبها "رجل" مثلى .. مكسور الرقبة على صدره !!

هل سأعودُ إليهم ورقبتى مكسورة .. ويروننى هكذا .. أنا .. ابن حتحوت !!

وفى غفلةٍ من " الرجال " .. بركَ على كل معزة .. خنزير . زعقت المعيز . جأرت . استغاثت ومأمأت . وكان " الرجال " يستغيثون بـ " جناح " أن يصرخ فيها . يُخيفها !

ألتَفتُ خلفى . فلم أجد "جناحاً" ..

نادوا على الحوت أن يصرخ فى الخنازير .. ينهرها !

تحسَّستُ المتن الذى أمتطيه .. فلم أجده تحتى !

اكتشفتُ أننى اركبُ ظهر اللُّجة !

ثم استدارت الخنازير نحو الرجال . كانت عيونها على تلك النتوءات . التقمتها . راحت تقضمها . وكانت بعد أن تلوكها بين أسنانها تتفلها . فتتلقف التُّفلُ كلاب . تلوكهُ بين أسنانها . ثم تتفلهُ . فتلتقط تفلها قِطط . سقطت تفلةٌ من فم قطة . فانكبتْ عليها أكوام النمل . جاءت أسراب الصراصير . فانْصرفتْ جيوش النمل .. ولما حضرت الفئران .. فرَّت الصراصير هاربة ......

انتهت

يوليه ٢٠٠٥

الكاتب فى سطور

احمد محمد عبده

- ❖ عضو اتحاد كتّاب مصر
- ❖ عضو نادى القصة
- ❖ عضو جمعية الأدباء
- ❖ عضو جمعية المحاربين القدماء
- ❖ رئيس النادي الأدبى بقصر ثقافة ديرب نجم .
- ❖ نُشرت أعماله بالصحف المصرية والعربية . كما نوقشت بعض أعماله بالإذاعة والتليفزيون .
- ❖ تناول النُقاد أعماله بالنقد والدراسة .
- ❖ شارك فى العديد من مؤتمرات هيئة قصور الثقافة .

صدر له :

- ❖ الجدار السابع قصص الهيئة العامة للكتاب١٩٩٤
- ❖ نقش فى عيون موسى قصص أصوات معاصرة ٢٠٠١
- ❖ الجدار السابع قصص ط٢ أصوات معاصرة ٢٠٠٣
- ❖ وقائع تجريد الخيول قصص أصوات معاصرة ٢٠٠٦.
- ❖ كلاب الصين قصص الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧

له تحت الطبع :

- ❖ ثعالب فى الدفرسوار رواية اتحاد الكتاب
- ❖ ترمومتر الزمن قصص للأطفال هيئة قصور الثقافة
- ❖ أنا توأم أبى ذر رواية هيئة قصور الثقافة .

الجوائز:

- ❖ جائزة مسابقة صلاح هلال بقصر ثقافة نعمان عاشور ٢٠٠٣.
- ❖ جائزة مسابقة مجلة النصر فى أدب الحرب ٢٠٠٢
- ❖ جائزة مسابقة نادى القصة ٢٠٠٣
- ❖ جائزة مسابقة إحسان عبد القدوس عن رواية ثعالب فى الدفرسوار ٢٠٠٦.



رقم الإيداع بدار الكتب
١٠٤٧١ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-374-303-9

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠٥٠ / ٢٢٦٦٢٢٠
٠١٢٢٦١٤٣٦٣